

دراسات
في
تاريخ العصور الوسطى

الأستاذة الدكتورة
إسمت غنيم

أستاذة تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم العلوم الاجتماعية
جامعة الاسكندرية

١٩٩٤

جامعة الاسكندرية

كلية التربية

الافار

دكتورة

إسماعيل نزييم

جامعة الاسكندرية

١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعرضت الإمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي لهجمات عناصر مختلفة ، سواء كانت هذه العناصر من البرابرة "الجرمان ، أو من القبائل الآسيوية الرعوية ، وإذا كانت شبه جزيرة سكيندينافيا فـ سال أوروبا ، تبعها قريبة من حدود الإمبراطورية الرومانية في الغرب الأوروبي ، . كانت المناطق التي عاشت فيها الشعوب الآسيوية بعيدة إلى حد ما عن أوروبا ، حيث عاشت هذه الشعوب في سهول آسيا في ظروف معيشية صعبة وتحت رحمة الطبيعة وتقلباتها ، لذلك أخروا في التنقل والترحال من مكان إلى آخر ، بحثاً عن الغذاء لهم ولما معهم من خيل وماشية ، واضطروا أحياناً للقيام بغارات مدمرة هدفها السلب والنهب ، وتعرضت أوروبا لهذه الغارات بين الحين والحين ، وغدت السهول الواقعة شمالي بحر قزوين منفذًا أمام هذه القبائل نفذت منه إلى أوروبا ، فثارت جواً من الرعب والفزع بين الشعوب الموجودة على حدود الإمبراطورية الرومانية ثم دخل هذه الإمبراطورية ذاتها فيما بعد .

وكان من بين هذه الشعوب الآسيوية ، السكيثيين ، Scythians والسارماشيين Sarmatians ، والهون Huns ، والأفار Avars ، والبلغار Bulgars ، والمجريين Magyars ، والمغول Mongols ، وغيرهم كثيرين .

ولا يخفى على أحد من الباحثين في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، الدور الذي قام به الهون منذ ظهورهم في حوض نهر الدانوب الأدنى في عام ٣٧٥م.، وحتى وفاة زعيمهم آتيللا في ٤٥٣م. ، وانهيار إمبراطورية الهون بعد

هزيمتهم في معركة نديو Nedeo في عام ٤٥٤ م. (١).

وقد لعب الآفار دوراً قریب الشبه بالدور الذي لعبه الهون في أوروبا ، فاستولوا مثلكم على موقع ممتاز في وسط أوروبا على الحافة الغربية لمنطقة السهل الآسيوي العظيم ، وظلوا أكثر من قرنين من الزمان يشرون الرعب في قلوب شعوب المنطقة الممتدة بين بحر البلطيق وبشبه جزيرة المورة (البلطيقيني) وأخضعوا شعوبها كثيرة لسيطرتهم ، وكان حكمهم يتاسب مع أسلوب حياتهم ، وأصولهم في بلاد السهوب ، اذ ينطوي على الاستبداد ، ويعتمد على القوة ، ويقوم على غارات السلب والنهب وبيث الرعب والإرهاب ثم يتعرض للانهيار الفجائي .

وكان تأثير الآفار في أوروبا العصور الوسطى تائيراً كبيراً ، وكانت لهم علاقات مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وهدروا القسطنطينية أكثر من مرة ، كما هدروا غرب أوروبا ، وماجمو إيطاليا ، وسببوا متابعة لمملكة الفرنجة ، حتى تم لشارلماן (٧٦٨ - ٨١٤ م) القضاء عليهم ، وبذلك زالت عقبة أمام امتداد النفوذ الفرنجي شرقاً ، كما مكن الفيكنج من الوصول إلى نهر الدnieper وسواحل البحر الأسود ، وتأسيس مدينة كييف ، التي كانت اللبنة الأولى في صرح الإمبراطورية الروسية .

وقد إنعدنا في هذا البحث على العديد من المصادر المعاصرة ، وهي مصادر أصلية قيمة ، أمدتنا بالمعلومات التاريخية الهامة عن غزوات الآفار وأتباعهم من

(١) سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ، الجزء الأول التاريخ السياسي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ٧٢ ، ٩١ .

جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ٨٠ . ٨٢-

السلاف وغيرهم من العناصر الأخرى ، خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي . كما أن هناك مصادر أخرى عرضت للحادث الخطير الخاص بمحصار الأفوار وأتباعهم لمدينة القدسية في عام ٦٢٦ م. أثناء عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) وتفاصيل هذا الصراع والنتائج التي ترتبت على فشله . وأمدنا مصادر ثالثة بتفاصيل الصراع بين شارلماן والأفوار ، وهو الصراع الذي إنتهى بقضاء شارلمان عليهم في ٩٠٨ م.

ومن أهم المصادر التي عرضت للأفوار وبداية ظهورهم على مسرح الحوادث التاريخية وغاراتهم على أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، المصادر التالية حسب ترتيبها الزمني :

يوحنا الأفسوسي Jhon of Ephesus (١) :

هو كاتب سوري الأصل ، عاش في أواسط القرن السادس الميلادي وتضي سنوات حياته في آسيا الصغرى والقدسية وتوفي في عام ٥٨٦ م. وأثناء حياته شغل منصب بطريك كنيسة إفسوس وكان معروفاً بصفة شخصية للإمبراطور جستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) وزوجته الإمبراطورة ثيودورا .

وكان يوحنا يؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح Monophysite ، وكتب عن التاريخ الديني Ecclesiastical History كتاباً بدأه بعصر يوليوس

(١) للمزيد عن يوحنا الأفسوسي راجع :

C. Med. H. , ed. Hussey , Vol IV , Part I , Cambridge , 1975 , P. 480 , 603 , N. I.

Vasiliev : History of the Byzantine Empire , vol I , PP. 150 - 151 , 184 - 185 .

قيصر (٤١ ق.م - ٤٤ ق.م) كما عرض لوجهة نظر أصحاب الطبيعة الواحدة .

وما يهمنا في هذا المصدر ، هو الحوادث التاريخية التي عرض لها منذ عام ٥٢١ وحتى عام ٨٥ م. والتي اشتملت على معلومات قيمة في التاريخ السياسي والثقافي للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي .

وقد كتب يوحنا مؤلفه هذا باللغة السريانية ، وترجمة إلى اللغة الانجليزية بينــ سميث Payne - Smith ونشره في أكسفورد في عام ١٨٦٠ م ، وهي الترجمة التي رجعنا إليها في هذا البحث . وهناك ترجمة لاتينية لهذا المؤلف قام بها بروكس Brooks ، فيلوفين Louvain ، وظهرت عام ١٩٣٦ .

أناجريوس Evagrius :

يعرف باسم أناجريوس السوري Evagrius of Syria ، ولد في عام ٥٣٦ ، وتوفي في عام ٦٠٠ م. ، كتب في التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica مؤلفاً اشتمل على ستة فصول ، بدأه بمجمع إفسوس الديني في ٤٢١ م. وانتهي به عام ٥٩٣ م. وإلى جانب الحوادث الدينية التي تضمنها ، اشتمل كتابه أيضاً على حوادث تاريخية هامة للفترة الزمنية المشار إليها ، وقد نشره باللاتينية بيدز Bidez وبارمنتير Parmentier في لندن عام ١٨٩٨ م. وهي الطبعة التي رجعنا إليها في هذا البحث .

ميناندر Menander :

هو متنár ، عاش في القرن السادس الميلادي وكان موظفاً في القصر

الإمبراطوري ، كلفه الإمبراطور مورييس (٥٨٢ - ٦٠٢ م.) بكتابة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، فكتب تاريخاً غلي في معظم القرن السادس الميلادي ، وتناول فيه بصورة أكثر تركيزاً الفترة الزمنية الممتدة من سنة ٥٥٨ هـ إلى سنة ٥٨٢ م. ، وهي فترة هامة بالنسبة لهذا البحث ، شهدت بداية اتصال الآفار بالإمبراطورية البيزنطية في ٥٥٨ م. في عصر الإمبراطور جستينيان ، ثم عرض لغارات الآفار وأتباعهم من السلاف والعناصر الأخرى على ممتلكات الإمبراطورية في أقليم البلقان وببلاد اليونان حتى عام ٥٨٢ م. ، ويعتبر تاريخ ميناندر تكملة لتاريخ أجاثياس مؤرخ عصر جستينيان ، كما قام ثيوفيلاكتوس سيموكاتا بتكميله تاريخ ميناندر .

ولم يبق من تاريخ ميناندر . سوى بعض أجزاء *Fragments* نشرت في عام ١٨٢٩ م. في مجموعة بون البيزنطية C. S. H. B. باسم (مقتطفات من التاريخ) ، كما قام ديندورف Dindorf *Excerpta ex Historia Agathias Continuatus* في مدينة لييج في عام ١٨٧١ في مجموعة : *Historici Graeci Minores* وهذه الطبعة هي التي رجعنا إليها في هذا البحث .

ثيوفيلاكتوس سيموكاتا

ولد بمصر ، وعاش بالقسطنطينية خلال عصر الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ، وشغل منصب السكرتير الإمبراطوري ، وله جانب ما كتب عن العلوم الطبيعية وبعض الرسائل ^(١) ، فإنه كتب أيضاً تاريخ عصر الإمبراطور مورييس

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State , transl. by Hussey , Oxford , 1968 , P. 25 .

Vasiliev : Op. cit , P. 181 - 182 .

(٥٨٢ - ٦٠٢ م) ، الذي يعتبر مصدراً هاماً عن عصر هذا الامبراطور ، وقد أمدنا بمعلومات ذات قيمة تاريخية كبيرة عن الأفوار والسلاف في منطقة البلقان عند نهاية القرن السادس الميلادي ، ونشره العالم دي بور De Boor باللغة اللاتينية تحت اسم التاريخ Historiae Leipzig في ليمازج عام ١٨٨٧ م.

يوحنا بيكلارنسيس : Johannis Biclarensis

عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، وهو ينتمي إلى القوط الغربيين Visigothes ، ولد بإسبانيا ثم انتقل للإقامة بالقسطنطينية وعاش بها لمدة سبعة عشر عاماً ثم عاد لاسبانيا مرة أخرى ، وأثناء وجوده بالقسطنطينية نرس اللغتين اليونانية واللاتينية (١) . وقد أعطي وصفاً للحوادث التاريخية منذ عصر جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨ م) وحتى عصر طيبريوس الثاني (٥٧٨ - ٥٨٢ م) فيما أسماه (تاريخاً أو عرضاً للحوادث) Chronica ، ونشره باللاتينية مومسن Mommesen في برلين ، في عام ١٨٩٤ م.

كانت هذه هي أهم المصادر التي رجعنا إليها عند معالجة تاريخ الأفوار خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، أما الحادث الهام ، الخاص بمحصارهم البري والبحري للعاصمة البيزنطية القسطنطينية في عام ٦٣٦ م ، فقد سجلته مجموعة من المصادر المعاصرة ، منها ما دونه رجل الدين المعاصر جورج بيسيديا Pisidia ، الذي كان يعمل شمامساً في كنيسة آيا صوفيا ، وقد دون كل ما يتعلق بهذا الحصار في قصيدة شعرية تاريخية تضم أكثر من خمسين بيتاً من الشعر .

وقد قسمت هذه القصيدة إلى ثلاثة أقسام :

(1) Toynbee A. : Constantine porphyrogenetus and his world , London , 1973 .
P. 633 , N. I.

القسم الأول :

عن الحملة التي قام بها هرقل ضد الفرس في عام ٤٢٢ م ، وأطلق على هذا
القسم اسم (عن الحملة الفارسية) . *De expeditione persica*

والقسم الثاني :

عن (حرب الأفاري) *Bellum Avaricum* وقد دون في هذا القسم من
أشعاره ، كل ما يتعلق بالحصار البري والبحري الذي فرضه الأفاري واتباعهم من
القبائل الأخرى على القسطنطينية في عام ٤٢٦ م .

أما القسم الثالث :

فكان عن المرحلة الأخيرة من حرب هرقل ضد الفرس ، وأطلق عليه اسم
. *Heraclias*

وقد نشر بيكر Bekker اشعار بيسيديا في مجموعة بون البيزنطية
خلال عامي ١٨٣٨ ، ١٨٣٩ ، وهذه هي الطبعة التي رجعنا إليها .
C.S. H. B.

وهناك طبعة جديدة مع ترجمة وشرح للأشعار باللغة الإيطالية نشرها العالم
الإيطالي برتوسى Pertusi وظهرت في عام ١٩٦٠ تحت عنوان (شعر جورج
بيسيديا) ، Giorgio di pisidia poem , panegirici epici , Ettal 1960 .

وقد دون أيضا هذه الحوادث الخاصة بحصار الأفاري للقسطنطينية في عام
٤٢٦ م، رجل الدين المعاصر ثيودور سنكيلوس Theodore Syncellus الذي كان
زميلًا لجورج بيسيديا في كنيسة آيا صوفيا دون هذه الحوادث في خطبة ألقاها

أمام البطريرك سير جيوس في ذكري الاحتفال بانتصار البيزنطيين على الأفار وخلفائهم وتم هذا الاحتفال بانتصار البيزنطيين على الأفار وخلفائهم ، وتم هذا الاحتفال في يوم ٧ أغسطس ٦٢٧ م ، وكان عنوان خطبته هو " الهجوم الأحمق للأفار ، والفرس الزنادقة ، ضد المدينة التي يحميها الله ، وتقهقرهم المخزي بفضل الحب الإلهي للشعب ، وبفضل شفاعة العترة المباركة " . وقد نشرها العالم ستربناخ في عام ١٩٠٠ م .

ومن المصادر الهامة التي عرضت لهذا الحادث التاريخي ما كتبه البطريرك نقول Nicephori patriarchae الذي ولد في عام ٧٥٨ م. وتوفي في عام ٨٢٩ م . وهو ينحدر من عائلة نبيلة من عائلات القسطنطينية ، وشغل منصباً هاماً في القصر الإمبراطوري وفي عام ٧٨٧ م حضر مجمع نيقية الديني ثانياً عن الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧ م) وبعد انتهاء المجمع اعتزل نقول الحياة العامة ، ولجأ إلى دير أنسسه بنفسه ، وفي ٨٠٦ تم تعيينه بطريرك لكنيسة القسطنطينية (آيا صوفيا) ، وظل بهذا المنصب حتى عام ٨١٥ م. حين عزله الإمبراطور ليو الخامس (٨١٢ - ٨٢٠ م) بعد أن رفض نقول تأييد سياسة الإمبراطور الخاصة بمعاهضة عبادة الصور المقدسة^(١) .

وقد كتب عدداً من الأعمال الدينية تتعلق بالجدل الذي أثير حول عبادة الصور المقدسة ، وكانت كتاباته هذه تتصرف بالعنف ، وكتب أيضاً عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في الفترة من عام ٦٠٢ م. وحتى عام ٧٧٠ م. .

(١) للمزيد عن البطريرك نقول وأعماله ، راجع :

Alexander P. : The patriarch Nccephorus of Constantinople 1958 .

ويعرف كتابه باسم (المختصر) Breviarium ، وقد ترجم فيه الدقة والموضوعية ، ونشره العالم دي بور De Boor في لينز عام ١٨٨٠ م.

الواهب ثيوفانيس^(١) : Theophanes

هو مؤرخ وعالملاموت متعمق ، ولد في عام ٨١٨ م. وكتب حوليات Chronographia عرض فيها للفترة الممتدة من عام ٢٨٤ إلى عام ٨١٣ م. ، واعتمد فيها على المصادر القديمة السابقة لعصره ، وخاصة ما كتب منها في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، فقدت حولياته ذات قيمة كبيرة ، وتمتعت بمكانة سامية في بيزنط ، وأصبحت بمثابة المصدر الأصلي لكل الحوليات البيزنطية المتأخرة زمنياً وقام Anastasius ، أمين المكتبة البابوية خلال السبعينات من القرن التاسع الميلادي بترجمتها من الأصل اليوناني إلى اللغة اللاتينية ، وعن هذا الطريق أصبحت حولياته معروفة في الغرب الأوروبي ، وتمتعت بشهرة واسعة هناك ، ثم قام العالم دي بور De Boor بنشرها في جزئين فيما بين سنتي ١٨٨٣ - ١٨٨٥ م. ، في مدينة لينز ، وهي الطبعة التي رجعنا إليها في هذا البحث . على أنه هناك طبعة باللغة الألمانية قام بها رير Reyer ، وهي قاصرة على الحوليات الواقعة بين سنوات ٧١٧ - ٨١٢ م. ووضع لها مقدمة ونشرها في عام ١٩٥٧ م.

أما عن علاقات الآثار باللومبارديين ، فقد تناولها المؤرخ المعاصر بولس

(1) C. Med. H. , ed. Hussey , Vol IV , Part I , PP.75 , 80 , 90 , 447 , 592 , 603 , N. I.

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 25 , 87 , ff. , 125 , 131 , 147 , ff.

Vasiliev : Op. cit , P. 365 .

الشمامس (١) Paul the Deacon الذي ينتمي إلى اللومبارديين ، وعاش في الفترة من ٧٢٠ - ٨٠٠ م. وقد تلقى تعليمه في البلاط الملكي في بافيا Pavia ، ثم أصبح راهباً بندكتياً في حوالي ٧٥٥ م. وعاش في دير مونت كاسينو Monte Cassino - إلى الجنوب الشرقي من روما - وفي عام ٧٨٢ ، قام بزيارة ملك الفرنجة شارلمان ، الذي أحسن إستقباله وظل مقيناً ببلاطه حتى عام ٧٨٦ م. وأنشاء وجوده هناك قام بكتابة تاريخ أساقفة متز Metz ، وبعد عودته إلى دير مونت كاسينو في إيطاليا ، شرع في كتابة أكثر أعماله أهمية وهو تاريخ اللومبارديين ، الذي كتبه باللاتينية وعرض فيه للفترة الزمنية المعندة من ٦٦٨ - ٧٤ م.

وقد رجعنا إلى الترجمة الانجليزية التي قام بها وليم دادلي فولك William Dudley Foulke ونشرها مع مقدمة لها ، إدوارد بيترز Edward Peters ، وظهرت ضمن منشورات جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٧٤ تحت عنوان : . History of the Lombards

ومن المصادر المعاصرة الهامة التي رجعنا إليها أيضاً لاستقاء المادة التاريخية عن الفترة الأخيرة من تاريخ الأفار وكيفية قضاء شارلمان عليهم كتاب

(1) Paul The Deacon : History of the Lombards , travse . by Foulke , ed. Peters , PP. VII - VIII .

The illustrated Encyclopedia of Mediæval Civilization , ed. , Grabois , 1930, P. 576 .

جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ العصور الوسطى الأوروبيّة وحضارتها ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، من ٣١٩، ٣١٠، ٣٠٤ .

أسامة زيد : اللومبارديون وعلاقتهم بالقوى السياسية المجاورة في ضوء كتابات المؤرخ بولس الشمامس ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، من ص ٣ - ٥ .

اينهارد Einhard مؤرخ عصر شارلمان .

ولد إينهارد في عام ٧٧٠ م. في مدينة فرانكونيا Franconia ، في وسط ألمانيا ، وتلقى تعليمه في المدرسة الملحوقة بدير فولدا Fulda ، وهو دير بندكتي يقع في شمال فرانكونيا ، وأسسها القديس بونيفاس Boniface في عام ٧٤٤ م. ثم التحق إينهارد بمدرسة القصر ، التي أسسها شارلمان في مدينة آخن Aachen ، وأصبح صديقاً ومستشاراً لشارلمان وبقي كذلك حتى وفاة شارلمان في ٨١٤ م. فتمتع إينهارد بمكانة كبيرة لدى ابن شارلمان وخليفة في الحكم لويس التقى (٧٧٨ - ٨٤٠ م) الذي أنعم عليه بضياع واسعة في ألمانيا .

وقد كتب إينهارد سيرة ذاتية لشارلمان تناول فيها أعماله ومآثره ، كما ضمنها كثيراً من التفاصيل التي انفرد بها ، وذلك نظراً لقربه من شارلمان ، وأطلق على هذه السيرة اسم (حياة شارل) Vita Caroli والغالب أنه كتبها في الفترة ما بين سنوات ٨٢٩ ، ٨٣٦ م. وتعتبر هذه السيرة الذاتية لشارلمان عالمة بارزة في هذا النوع من الكتابات في العصور الوسطي .

إلى جانب ذلك ، هناك ثلاثة أعمال أخرى لإينهارد :

العمل الأول هو : (رسائل إينهارد) Einhard Epistolae وهي عبارة عن أبحاث في إدارة أعماله في ألمانيا ، وتعتبر شاهداً هاماً على النظام الإقطاعي في المجتمع الألماني في القرن التاسع الميلادي .

والعمل الثاني هو : (ترجمة حياة ومعجزات القديسين مارسيلينوس وبطرس) Detranslatione et miraculis Sanctorum Suorum Marcellini et Petri .

أما العمل الثالث فهو : (مذكريات في تمجيد الصليب)
Libellus de adoranda Cruce . وقد كتب إينهارد أعماله كلها باللغة اللاتينية . وفي عام
٨٢٠ م. غادر إينهارد البلاط الملكي ودخل إلى ضياعه في المانيا واستقر بها حتى
وفاته في عام ٨٤٠ م. (١) .

كانت هذه ثبّة سريعة عن أهم المصادر التي رجعنا إليها في هذا البحث .
إلى جانب عدد كبير من المراجع جرت الإشارة إليها على امتداد البحث . ونسنعرض
في الصفحات التالية الدور الذي لعبه الأفار في تاريخ أوروبا ، منذ بداية ظهورهم
على مسرح الحوادث التاريخية ، وحتى القضاء عليهم علي يد شارلماן .

(١) عن إينهارد وأعماله راجع :

- Einhard and Notker the Stammerer , Two Lives of Charlemagne , Trans , by Thorpe , Great Britain , 1969 , PP. 12 - 15 .
- Halphen L. ed. , Einhard , La Vie de Charlemagne , Paris .
- The Illus . Encycl . of Medieval civilization , P. 289 .

فيما يتعلق بأصل الآفار ، فإنه ليس هناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول هذا الموضوع ، حيث أرجعتهم الغالبية من المصادر والمراجع إلى عنصر الترك .

فقد ذكر كل من المؤرخين المعاصررين ميناندر ، وشيفيلاكتوس سيموكاتا ، أن الترك الذين كانوا يعيشون على ضفاف نهر تيل^(١) أو تولا Til or Tula والذى كان الترك يطلقون عليه اسم (النهر الأسود) نظراً للون مياهه الداكن ، قد هاجموا الهون البيض المعروفين باسم هفتالิตس Hepthalites ، والأويغور Uigurs ، الذين ينحدرون من سلاطين هما الفار والهون Var et Hunni ، ويطلق عليهم اسم فاركونيتس Varchonites ، وقد نجح خان الأويغور هو وتلثمانة ألف من اتباعه ، وتناثرت جثثهم لمسافة امتدت سفر أربعة أيام ، وقد فضل عدد من نجوا من هذه المنية وقدر عددهم بعائبي ألف محارب التف على العبوية ، ففروا وأتبعوا طريق نهر فولجا ، وظهروا في الغرب ، في شمال بلاد القوقاز ، وأطلقوا على أنفسهم إسم الآفار Avars ، وهو إسم شعب قديم أفضل منهم^(٢) .

ويعني ذلك أن الآفار يرجع أصلهم إلى الترك الأويغور الذين ينحدرون من سلالة الهون .

ويؤكد كل من المؤرخين الغربيين المعاصررين بولس الشamas ، وإيتھارد ، أن

(١) نهر تيل نهر صغير يصب في نهر سلنجا Selinga في شمال منغوليا راجع : Gibbon : The Decline and fall of the Roman Empire , London , 1976 , vol 4 , P. 291 , N. 2.

(٢) Menander : Agathias Continuatus , fragments , in Historici Graeci Minores , ed. by L. Dindorf , Vol II . Leipzig , 1871 , frag 4.

- Theophylactus Simocatta : Historiae , ed . , by C. De Boor , Leipzig , 1887 , VII , P. 8.

الآفار من عنصر الهون (١) .

وقد أخذ عدد كبير من المؤرخين المحدثين بهذا الرأي منهم على سبيل المثال ،
جيبيون ، نيلوب ، بيبوري ، باركر ، بيسيكر ، بربيريه ، ومورسي (٢) .

ولذا رجعنا إلى كتاب (الإدارة الإمبراطورية) De Administrando Imperio للإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٤ - ٩٥٩ م) الذي عرض فيه مختلف الشعوب والقبائل التي عرفت في عصره والعصور السابقة له ، نجد أنه لا يدلّي برأي قاطع عن أصل الآفار ولا عن وطنهم الأصلي ، فهو يقول : " والجبييد اي الذين انقسموا فيما بعد إلى اللومبارديين والآفار (٣) . ثم يقول : " وعندما جاء أتيللا ملك الآفار (٤) . والمعروف أن أتيللا هو ملك الهون ، فهل في ذلك إشارة من قسطنطين السابع إلى أن الآفار من عنصر الهون ؟

(1) Paul the Deacon : History of the Lombards , PP. 50 , 67 .

Einhard and Notker the Stammerer , Two lives of Charlemagne , P. 67 .

(2) Gibbon E. : The Decline and fall of the Roman Empire , London , 1976 , vol 4 , P. 291 .

- Dunlop : The History of the Jewish Khazars , U. S. A. , 1967 , PP. 5 - 6 .

- Bury : History of the Later Roman Empire , U. S. A. , 1985 , Vol II , P. 314.

- Barker : Justinian and the later Roman Empire , P. 197 .

- Beisker : The Expansion of the Slavs , C. Med. H. Vol II , ed. Bury , Cambridge , 1976 , P. 438 .

- Brehier L. : Vie et mort de Byzance Paris , 1969 , P. 40 .

(3) Constantine Porphyrogenitus : De Administrando Imperio , ed - Bonn , C. S. H. B. , Chapter 25 .

(4) Ibid : Chapter 28 .

لا نستطيع ان نجزم بذلك ، خاصة وأنه عاد يقول : " ووجدوا أمة سلافية غير مسلحة كانت تسمى الآفار " وفي تفاصيل آخر يقول : " واعتقد سكان الجانب الآخر من النهر هم السلف أو الآفار ^(١) .

ومكذا لم يدللي الإمبراطور قسطنطين السابع برأي قاطع في أصل الآفار .

والملحق أرنولد توينبي رأى في أصل الآفار عرضه في كتابه " قسطنطين السابع وعالمه " ذكر انهم شعب بدوی أوداسي (أوروبی - آسيوي) .
Eurasian nomad People . ^(٢)

ولم نعثر في المصادر أو المراجع التي رجعنا إليها على ما يؤكد هذا الرأي .
وفي الوقت نفسه أرجع بعض المؤرخين ، الآفار إلى العنصر التركي المغولي ، منهم أوبولن斯基 Obolensky ، هوبتمان Hauptmann ، والعريفي ^(٣) .

أما المؤرخان فازيليف Painter ، وبينتر Vasiliev ، فقد أرجعا الآفار
إلى الأصل التركي ^(٤) دون تحديد . People of Turkish Origin

(1) Ibid : Chapter 29 .

(2) Toynbee A. : Constative Porphyrogenitus and his World , London , 1973 , P. 621 .

(3) Obolensky : The Empire an dits Northern Neighbours 565 - 1018 , in C. Med . H. Vol IV , part I , ed. Hussey P. 476 .

Hauptmann : Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avars Pendant la Second moitie du VI Siécle . dans (Byzantium) tome IV , 1927 - 1928 , P. 148 .

الصين: المغول حـ ١٠ .

(4) Vasiliev : Op. cit . , P. 171 .

Painter : A History of the Middle Ages 284 - 1500 , London , 1979 , PP. 35 , 78 .

وينسبهم المؤرخون هوسيج Haussig ، هويت Hoyt ، شودورو Shodorow ، سيليجر Seeliger ، إلى جبال ألتاي^(١) في منغوليا ويقولون إنهم شعب بدوي ألتاي^(٢) nomadic Altaic People .

وهكذا نجد أن الغالبية من المؤرخين يكتنفون على أن الآفار من عنصر الترك . والأرجح أنهم يتبعون إلى العنصر التركي الهوني ، وذلك استنادا إلى ما ذكره المؤرخون المعاصرون ، ميناندر ، ثيفيلاتكتوس ، بولس الشamas ، وإينهارد . خاصة وأن عددا من كتاب المؤرخين المحدثين قد أخذوا بهذا الرأي ، كما سبقت الإشارة . ويجتمع المؤرخون الذين سبق ذكرهم على أن الموطن الأصلي للأفار هو وسط آسيا ، وأنهم فروا منها تحت ضغط الترك .

وقد استقروا منذ أواسط القرن السادس الميلادي عند سفوح جبال القوقاز ، حيث وجد أيضا عنصر اللان Alani ، وهناك سمعوا للمرة الأولى عن عظمة وثراه

(١) جبال ألتاي أو جبال الذهب ، هي مجموعة من السلسل الجبلي المرتفعة التي تتدلى من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي على امتداد الحافة الغربية للهضبة المرتفعة الواقع إلى الشمال الغربي من منغوليا ، ويبعد طولها حوالي السبعمائة ميل ، ويصل ارتفاعها إلى اثنى عشر ألف قدم ، ويقع بين هذه الجبال سهل شاسع يترافق ارتفاعها بين خمسة آلاف إلى ستة آلاف قدم ، راجع :

العربي : المغول ، من ص ٥ - ٦ .

(2) Haussing : A History of Byzantine Civilization , trans . from the German by Hussey , London , 1971 , P. 93 .

Hoyt & Shodorow : Europe in the Middle Ages Third Edition , U. S. A. , 1976 , PP. 4 , 120 .

Seeliger G. : Conquests and Imperial Coronation of Charles The Great , in C. Med . H. Vol II , ed. Bury , P. 608 .

الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التي كان يحكمها في ذلك الوقت الإمبراطور جستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) ، وعن طريق وساطة أمير اللان ، ويدعى ساروسيوس Sarosius سعوا إلى بيزنطة فجري أول إتصال بين الأفار وبين الإمبراطورية في عام ٥٥٨ م ، حيث أرسلوا إليها سفارة علي رأسها أحدهم ويدعى كانديش Candish ، وفي طريقهم إلى القسطنطينية مرروا باقليم لازيكا Lazica على ساحل البحر الأسود ، حيث سمع حاكمها البيزنطي بموصلة طريقهم إلى العاصمة البيزنطية ، وهناك تجمع أهالي القسطنطينية يحفزهم الفضول وتملامم الرهبة لمشاهدة هؤلاء الرسل نواب الملائج الهونية .

ولما سُمح لهم بقاء الإمبراطور جستينيان ، أخذوا يقتصون عليه أنباء انتصارتهم ، و gio شهم التي لا تنتهي ، وطلبوا مطالبات كثيرة ، منها أراضي ، وهبات ، وهدايا ، وجزية سنوية ، وأورد المدخر ميتاندر نص حديثهم للإمبراطور ، قالوا : "أيها الملك العظيم ، أنت ترى أمامك ، مماثلين لأقوى وأكبر الأمم ، التي لا تنتهي ، جتنا لنعرض عليك أن نكرس جهودنا لخدمتك ، فهو سعنا القضاء على جميع الأعداء الذين يقلقون راحتكم . ولكننا نتوقع أن يكون ثمن تحالفنا ، وجزاء شجاعتنا ، هدايا ثمينة ، وإعانته مالية سنوية ، وأراضي خصبة " (١) .

وتشبيهاً مع السياسة السلمية التي سار عليها جستينيان في السنوات الأخيرة من حكمه ، بعد أن خوت خزانة الإمبراطورية من الأموال نتيجة استنزافها في حروبها من أجل إستعادة ولايات الإمبراطورية الرومانية المفقودة في الغرب الأوروبى ،

(1) Menander : Fragment 4.

Gibbon : The Decline and Fall , Vol 4 , P. 222 .

Bury : History of the later Roman Empire , Vol 2 , P. 315 .

Hauptmann : Les Rapports , P. 148 .

وفيما كان يدفعه من أموال للدرس لشراء السلام على الجبهة الشرقية ، إلى جانب الإنشاءات العديدة والعمائر العسكرية التي أقامها على الجبهة الشمالية في محاولة لصد غارات العناصر المتمردة على حدود الإمبراطورية ^(١) . لذلك قرر الإمبراطور جستينيان شراء صدقة الآفار ، وأبلغ مجلس الشيوخ Senato بذلك ، موضحاً أن هدفه هو حماية الجبهة الشمالية من غارات العناصر المتمردة عليها . وكان من رأيه أنه سواء إنتصر الآفار على هذه العناصر أو هزموا منها ، فإن الإمبراطورية سوف تستفيد ^(٢) .

للموضح المصادر ماهية هذه الاستفادة التي سوف تجنيها الإمبراطورية من إنتصار الآفار أو هزيمتهم ، والغالب أن استفادة الإمبراطورية من إنتصار الآفار على العناصر المتمردة على الجبهة الشمالية للإمبراطورية هو وقف تدفق سيل هذه العناصر على جبهة الدانوب ، وقيامهم بدور حماة هذه الجبهة كمحالفين للإمبراطورية . أما في حال هزيمة الآفار ، فسوف تتخلص الإمبراطورية من عدو جديد طامع فيها . وعلى أية حال فقد تم عقد تحالف Foedus بين الإمبراطورية والآفار في نفس العام ٥٥٨ م. ، وتعهد فيه الآفار بالخضوع للإمبراطور وقتل أعدائه ، مقابل الجزية السنوية . وقد غمر الإمبراطور جستينيان رسلاً الآفار بعطشه وكرمه ، وقدم لهم الكثير من الهدايا ، تمثلت في الثياب الحريرية ، والطهي الذهبية ، والفرش الوثير ورحل الرسل عائدين إلى بلادهم وهم يشعرون بالرضا والسعادة ^(٣) .

(١) عن كل ما يتعلق بالإمبراطور جستينيان ومصره راجع :

استشهد غثيم : إمبراطورية جستينيان ، الإسكندرية ، ١٩٨٢ .

(٢) Obolensky : Op. cit , PP. 476 - 477 .

(٣) Obolensky : Op. cit , P. 477 .

وقد لعب الأفاريور لهم كحلفاء إمبراطوريين Imperial Foederati بهمة واقتدار ، وأخذوا في غزو أعداء الإمبراطورية في المنطقة الواقعة بين جبال القوقاز وجبال الكرباسات ، فدمروا إمبراطورية الانتاي Antae - بين جبال الكرباسات ونهر الدونتس Donets - وأستعبدهم ، وشنوا الحرب على العناصر ذات الأصل الهوني مثل السابيري Sabiri - على الشاطئ الغربي للكاسبيا - وهزموم ، حاربوا بنجاح ضد عناصر البلغار - بين جبال القوقاز ونهر الدون - والأتيجور Utigur ، والكوتريجور Kotrigurs ، وهم من عنصر الهون وكانا يعيشان على نهر نهر زوف - وفي عام ٦٦ م. قاموا بغزوة كبيرة في وسط أوروبا وظهروا عند جبال الألب Elbe ، وهدروا ماركيات مملكة الفرنجة في أوروبا Austrasia .

وهكذا وفي أقل من عشر سنوات كانت معسكرات الأفاريور تستقر على ضفاف نهر الدانوب وجبال الألب وقد زالت ومحيت من على وجه الأرض العديد من القبائل الصقلية والبلغارية أما من بقي من هذه القبائل فقد خضعوا لسيطرة وحكم الأفاريور ، وتعهدوا بدفع الجزية السنوية لهم رمزاً للخضوع والتبعية (١) .

علي أن علاقات الأفاريور بالإمبراطورية البيزنطية أخذت تدخل في طور أكثر خطورة ، ذلك أنه في نفس العام ٥٥٨ م. أرسل خاقان الأفاريور (يسمى الخاقان أو

(1) Menander : Fragment 5 .

Theophylactus Simocatta , VII , P. 8 .

Gibbon : Op. cit , Vol 4 , P. 292 .

Bury : Op. cit , Vol II , P. 315 .

Obolensky : Op. cit , P. 477 .

Hauptmann : Les Rapports , P. 148 .

الخان) ويدعى بچان Bajan ، سفارة الي القسطنطينية يطلب من الامبراطور جستيان السماح لهم بعبور الدانوب والاستقرار في إقليم بانوبيا Pannonia ، وقد علم الإمبراطور سرا ، عن طريق أحد رسل الآفار ، أنهم يضمرون الشر والخيانة ، وأنهم سيغبون الدانوب ، سواء قبل الإمبراطور أو رفض ، لذلك عمل على عرقلة رسالهم ، وأعطي تعليماته إلى حاكم موزيزيا Moesia ، وسكتيا Scuthia ، بالعمل على تقوية الدفاع على نهر الدانوب ^(١) ، ثم سمح للرسل بالانصراف ومنهم الهدايا المعتادة ، والأموال التي استخدموها في شراء الملابس والأسلحة من القسطنطينية . وقد رأى الإمبراطور أنه ليس من السياسة في شيء رفض بيعها لهم ، لكنه أرسل تعليمات سرا إلى جستين ، الوالي البيزنطي لمدينة قولخيس Colchis ، على ساحل البحر الأسود إلى الشمال الشرقي من طرابيزيون ، أن يستولي على أسلحة الآفار حينما يمررن عبر إقليمه في طريقهم إلى بلادهم ، وقد نفذ جستين أوامر الإمبراطور ^(٢) . وكانت هذه الحادثة بداية العداء بين الآفار والإمبراطورية البيزنطية ، ولم يتمتد العصر بالإمبراطور جستيان لكي يرى النتائج التي ترتب على هذه الحادثة ، لكن لم يعمر الكثير من الوقت على وفاته في عام ٥٦٥ م. حتى قاد بچان خاقان الآفار ، قومه وعبروا الدانوب ، حيث أمضوا لأنفسهم البقاء في ولايات البلقان ، التي منيت على أيديهم بالکوارث في الأعوام الستين التالية ، كما يتضح ذلك من عرضنا على المصفحات التالية .

خلف جستيان على العرش ، الإمبراطور جستين الثاني (٥٧٨ - ٥٦٥ م) الذي ورث ضمن ما ورثه عن جستيان ، عداء الآفار المتزايد ، فبعد أيام قليلة من اعتلاء العرش ، يستقبل جستين الثاني سفارة من الآفار ، وتمشيا مع سياسته تجاه أعداء الإمبراطورية المختلفة ، التي تتسم بالكبراء والأنفة ،

(1) Menander : Fragment 5 .

(2) Bury : Later Roman Empire , Vol II , PP . 315 - 316 .

رفض دفع الجزية السنوية للأفاري^(١) . ومكنا منهم الفرصة لكي يظهروا عدائهم وأضاحوا للإمبراطورية ، خاصة بعد أن أصبحوا قوة يحسب حسابها في ذلك الوقت .

ذلك أن الأفاري أخذوا في القيام بدور نشط في منطقة وسط أوروبا ، وكان اللومبارديون والجيبيادي Gepidae ، حتى ذلك الحين ، هما القوتان الأساسيتان على حدود الدانوب وفي منطقة بانوبيا ، لكن دخول الأفاري الحومة غير الموقف من أساسه ، فقد ازدادت العلاقات سوءاً بين اللومبارديين والجيبيادي ، واشتغلت العرب بينهما ، واضطرب ملك اللومبارديين ألبوين Alboin أن يطلب المساعدة من الأفاري ، وعقد مع الخاقان بيجان معايدة تحالف ، تعهد فيها ألبوين بدفع عشر ما يملكه اللومبارديون من الماشية للأفاري ، مقابل مساعدتهم له في الحرب ضد الجيبيادي ، وأن يستولي الأفاري ، على أراضي الجيبيادي في حال الانتصار عليهم^(٢) .

وقد قام الأفاري من جانبهم بمحاكمة الجيبيادي من ناحية الشمال الشرقي ،

(1) Menander : Fragment 14 .

John of Ephesus : Ecclesiastical History translated from syriac by Payne - Smith , Oxford , 1860 , Part VI , P. 24 .

(2) Paul The Deacon : History of the Lombards PP. 50 - 52 .

Hartmann : Italy under the Lombards , in C. Med. H. ed. Bury , vol I , 1976 , P. 195 .

Hauptmann : Les Rapports , PP. 138 , 150 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 47 .

راجع أيضاً :

محمد الشيف : أوروبا العصور الوسطى ، الاسكندرية ، ١٩٩١ ، ص ٢٠٨ .

أسامة زيد : اللومبارديون وعلاقتهم بالقوى المجاورة ، ص ١٢ .

على حين هاجمهم اللومبارديون من ناحية الشمال الغربي ، وفي المعركة التي دارت على ضفاف نهر الدانوب ، نُجح قونيموند Kunimund ملك الجيبيداي على يد ألبوبين ملك اللومبارديين وهرب عدد من الجيبيداي ووقع الباقون منهم تحت سيطرة الآفار ، خاصة أولئك الذين تمسكوا بالبقاء في أراضيهم واستولى الآفار على أراضي الجيبيداي تحقيقاً لاتفاقهم السابق مع اللومبارديين ^(١) .

وهكذا أصبح اللومبارديون في محنّة قاتمة ، إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآفار ، بعد أن أصبح هؤلاء مجاورين لهم من الناحية الشمالية الشرقية ، بعد أن استولى الآفار على أراضي الجيبيداي ، وبهذا وكانت اللومبارديين لم يفعلوا شيئاً أكثر من أنهم استبدلوا عندهم بعدها فقد أقدموا على الهجرة أو ما يعتبر المرحلة الأخيرة في مجريتهم ، فانطلقت جموعهم في عام ٥٦٨ م. بقيادة زعيمهم ألبوبين إلى الأراضي الإيطالية ، فاجتازوا جبال الألب واخترقوا إيطاليا ، ونجحوا في الاستقرار في السهول الشمالية القسيحة ، دون مقاومة تذكر وأقاموا دولتهم في تلك البلاد ^(٢) . ومكذا كان للآفار دور هام في مجرة اللومبارديين وفتحهم لشمال إيطاليا واستقرارهم هناك .

بعد رحيل اللومبارديين إلى إيطاليا ، احتل الآفار أراضيهم ، وبذلك بسطوا سلطتهم على كل السهل الهنغاري وأصبحوا قوة مسيطرة في وسط

(1) Hartmann : Italy under the Lombards , P. 195 .

Baynes : The Successors of Justinian C. Med. H. vol II , ed . Bury , P. 268 .

(2) Hartmann : Op. cit , P. 196 .

Breheir : Op. cit , P. 47 .

محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطى ، ص ٢٠٨ .

أسامة زيد : اللومبارديين ، ص ١٢ - ١٣ .

أوروبا ، وسادة إمبراطورية امتدت من بوهيميا إلى الدانوب الأدنى ، ومن جبال الألب إلى السهول الجنوبية لروسيا ، وتمركزوا في وادي نهر تيس (Tisza) - في وسط أوروبا - وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تغيير ميزان القوى في هذه المنطقة ^(١) .

لم يكن منتظرا بعد كل ما يلجمه الآفار من قوة ، أن يقبلوا رفض الإمبراطور جستين الثاني دفع الجزية السنوية لهم ، ومن ثمة بدأ الآفار في تهديد ممتلكات الإمبراطورية في إقليم تراقيا ، فأرسل إليهم جستين الثاني الجيش في عام ٥٦٩ م. بقيادة طيبريوس - الذي صار إمبراطورا فيما بعد - والتقى بهم في إقليم تراقيا وأحرز الانتصار عليهم ^(٢) . ولم يلبث الآفار ان ركزوا اهتمامهم على مدينة سيرميوم Sirmium التي تقع في شمال إقليم الليريا ، والتي تمنتت بمركز إستراتيجي ممتاز والتي تعتبر مفتاح التحصينات البيزنطية في هذه المنطقة ، وهذا ما دفع خاقان الآفار بچان إلى فرض الحصار بهدف الاستيلاء عليها حتى يفتح الطريق أمامه للوصول إلى باقي التحصينات البيزنطية وقد صمدت المدينة في وجه الآفار ، وأرسل الإمبراطور جستين الثاني قائده طيبريوس في عام ٥٧٤ م. مرة ثانية لحرب الآفار ، ولكنه هزم أمامهم هذه المرة ، واضطر الإمبراطور جستين الثاني إلى أن يعقد معهم تحالفا مقابل تعهده بدفع جزية سنوية تقدر بثمانين ألف

(1) Obolensky : The Empire and its Northern Neighbours , PP. 477 - 478 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 47 .

(2) Johannis Biclarensis : Chronica Minora , ed . by Th. Mommsen

Berlin , 1894 , Vol II , P. 212 .

نوميسماتا (١) .

وقد حاول الامبراطور طيبريوس الأول (٥٧٨ - ٥٨٢ م) استغلال هذا التحالف مع الآفار ، واستخدمهم في كبح جماح السلاف ، الذين كانوا قد عبروا الدانوب في فترة مبكرة من القرن السادس الميلادي ، وانتشرت غاراتهم في بلاد البلقان ، مسببة فزعا هائلا لأهالي القسطنطينية ذاتها .

وحسب رواية المؤرخ ميناندر ، فإن إمبراطور طيبريوس أرسل مندويا عنه ، قاد ستين ألفا من الفرسان الآفار إلى والاشيا ، حيث هاجموا السلاف ، ونهبوا أراضيهم ، وأخضعوهم لسيادتهم (٢) ، والجدير بالذكر أنه منذ ذلك الحين ، أصبح السلاف من رعایا الآفار ، وأصبحت غارات هذين الشعبين غارات مشتركة (٣) .

علي أن الآفار ما ليثوا أن نقضوا هذا التحالف مع طيبريوس ، وعادوا لمحاصرة مدينة سيرميا ، وقد اقترح الامبراطور طيبريوس أن يندرج ابنته من خاقاناته

(1) Menander : Fragment 34 .

Obolensky : Op. cit , 478 .

Breheir : Op. cit , PP. 47 - 48 .

Hauptmann : Les Raports , P. 160 .

والجدير بالذكر أن النوميسماتا هي عملة ذهبية بيزنطية ، كانت تساوي واحدا على اثنين وسبعين من الرطل من الذهب ، وكانت النوميسماتا تقسم إلى ١٢ ميلياريسيا ، التي تقسم بدورها إلى اثني عشر فلسا ، انظر :

Runciman : Byzantine Civilisation , Seventh impression , 1975 , P. 174 .

(2) Menander : Fragment 64 .

Jahān of Ephesus , VI , P. 24 .

(3) Vasiliev : Op. cit , Vol I , PP. 178 , 196 .

Tsynbeé : Op. cit , P. 633 N 6 .

الآفار بچان ، مقابل تخليه عن أطماءه في سيرميا . لكن بچان الذي كان يدرك تماماً انشغال الامبراطور طيبريوس في الحرب ضد الفرس ، رفض عرض الامبراطور ، واستمر محاصراً للمدينة ثلاثة سنوات (٥٧٩ - ٥٨٢ م) واستولى على المناطق المحيطة بها ، ثم استسلمت المدينة ذاتها في النهاية للآفار في ٥٨٢ م. قبل موته طيبريوس بزمن وجيز^(١) .

ومكذا سقط هذا الحصن الهام في يد الآفار ، وأصبحت أنهار السافا ، الدراجا ، والدانوب تحت سيطرة الآفار كما أصبح خاقان الآفار هو السيد الجديد لمنطقة البلقان ، أما أهالي هذه المنطقة فقد كانوا تحت رحمته تماماً ، ونقبس فقرة مما ذكره المؤرخ ميخائيل السورياني^(٢) Michel le Syrien لندرك مدى معاناة الأهالي في هذه المنطقة اذ قال^(٣) :

” هوجم الرومان من جديد ، بواسطة شعب متبرير لعين ، ورجال نوي شعور مشعنة ، قدموا من الشرق الأقصى ، يسمون بالآفار ، وكذلك هوجم الرومان على يد شعب آخر جاء من الغرب هم السلاف ، وأيضاً من أولئك المعروفين باسم

(1) Menander : Fragment 65 .

- Theophylactus Simocatta : I , ch. 3 , PP. 44 - 45 .
- Theophanes : I , P. 278 .
- Lemerle : Invasions et migration des les Balkans , depius l'epouque Romaine Jusqu'n au VIII^e Siècle , Revue Historique , vol CCXI , 1954 , P. 289 .
- Obolensky : Op. cit P. 480 .
- Hauptmann : Lea Rapportes , P. 160 .
- C. Med. H. vol II , Part I* , ed . Hussey , P. 68 .

(2) Chabot , la chronique de Michel le Syrien , Paris , 1899 - 1904 , X , P. 12 .

اللومبارديين، كل هؤلاء كانوا تحت سيادة الخاقان أو ملك الأفاري، إذ حاصروا مدن الرومان وغيرها من الحصون ، وقالوا للأهالي " إرحلوا عن بلادكم ، إزدعوا وأحصدوا ونحن فقط الذين نأخذ محصولكم " .

من هذا يتضح مدى معاناة الأهالي في منطقة البلقان من جراء هذه الغارات الدمرة ، والتي استمرت بنفس العنف حتى توفي الإمبراطور طيبريوس في ٥٨٢ م. وخلفه الإمبراطور موريوس (٥٨٢ - ٦٠٢ م) ، وفي السنة الأولى من حكم هذا الأخير (٥٨٢ - ٥٨٣ م) قام الأفاري والسلاف بغارة كبيرة ، وصلوا فيها إلى القسطنطينية ذاتها ، وحاصروا سور انتاستاسيوس خارج العاصمة ، كما أغادروا على الممتلكات البيزنطية في البلقان ، واستولوا على مدينة سينجيد نم Singidunum (بلغراد الحالية) ، على نهر الدانوب ثم ساروا شرقا ، واستولوا على مدينة انخيالوس Anchialus المطلة على البحر الأسود إلى المغرب من مدينة القسطنطينية ، ونزلوا جنوباً وهاجموا بلاد اليونان .

وقد عرض لهذه الغارة الكبيرة عدد من المؤرخين المعاصرين وتناولها بعضهم بصفة عامة ، مثل يوحنا بيكلارنسيس الذي قال (١) : " إن السلاف انتشروا في مدن كثيرة في تراقيا ، ونهبواها ثم تركوها وهي خاوية ... ونهب الأفاري تراقيا ، وحاصروا سور القسطنطينية العظيم " .

وذكر ميناندر هذا المعنى نفسه ، وقال إن عدد الغزاة من الأفاري

(١) النص اللاتيني هو:

" Sclavini in Thracia multas urbes Romanorum Pervadunt Avares Thracias Vastant et regiam urbem a muro longo obsident " .

Johannis Biclarensis , chronica , vol II , P. 215 .

والسلاف وصل إلى المائة ألف رجل ، حين هاجموا تراقيا وبلادا أخرى كثيرة^(١).

أما يوحنا الأفنسوسي فقال عن هذه الغارة (٥٨٢ - ٥٨٣ م) ما يلي^(٢) :

”تقلب شعب لعنة يسمى بالسلاف ، على كل بلاد اليونان ، وإقليم تساليا وترقيا ، واستولوا على المدن وعلى العديد من الحصون ، ونهبوا وأحرقواها ، واستعبدوا أهاليها ، ونصبوا أنفسهم سادة على كل الإقليم ، واستقرروا فيه بالقوة ، وتصرفوا فيه كما لو كان ملك خاص بهم ، دون خشية الله ، لأن الملك (الإمبراطور البيزنطي) كان مشتبكا في الحرب مع الفرس ، وأرسل كل جيشه إلى الشرق ، وقد عاشوا في الإقليم في أمان تام ، واستقرروا فيه ، وانتشروا قريباً وبعيداً كما لو أن الله قد أباح لهم ، ونهبوا وأحرقوا وأخذوا الأسرى ، وامتنت غاراتهم حتى وصلت إلى السور الخارجي للمدينة (القسطنطينية) وشتتوا قطعان خيل الإمبراطور ، وكان عددهما يقدر بآلاف ، كما فعلوا نفس الشئ نفسه مع كل ما وجدهم في طريقهم .

وإن كان يوحنا الأفنسوسي قد ذكر أن السلاف هم الذين قاموا بهذه الغارة ولم يذكر شيئاً عن الآفار ، إلا أن الثابت أن السلاف في هذه الفترة الزمنية (٥٨٢ - ٥٨٣ م.) كانوا من رعايا الآفار ، وتحت سيادتهم ، وكانت غاراتهم مشتركة ، كما سبق أن أوضحنا .

(1) Menander : Fragments 47 , 48 .

(2) John of Ephesus : Ecclesiastical History Part III , translated from syriac by Payne - Smith , Oxford , 1860 , PP.432 - 33 .

وقد عرض المؤرخ المعاصر أفاجريوس لهذه الفارة أيضاً فقال عنها^(١)

قام الآثار بهجومين على سور انتستاسيوس ، واستولوا على سينجيد ونوم ، إنخيالوس وكل الهيلاس ، والمن ووالحصون الأخرى ، واستعبدوا السكان ، وبخربوا وأحرقوا كل شئ صادفه في طريقهم .

وهناك دليل ثالث يذكر غزو الآثار والسلاف في هذه السنة ٥٨٢ - ٥٨٣ م. في بلاد اليونان ، وهذا الآخر يتمثل في وجود تحرير في سوق أثينا Circa يرجع تاريخه إلى العام ٥٨٢ - ٥٨٣ م. ما زال باقيا حتى اليوم^(٢) .

والجدير بالذكر أن أفاجريوس استعمل كلمة الهيلاس Hellada في نصه ولا ندري ماذا يقصد بالهيلاس علي وجه التحديد ، هل يقصد بلاد اليونان ؟ وإذا كان يقصد بلاد اليونان فهل يقصد بها شبه جزيرة تساليا فقط ، أم تمتد لتشمل أيضاً شبه جزيرة البلقونيز ؟

لقد قام المؤرخ كارانتيس Charanis بعمل دراسة وافية شديدة ، توسيع فيها استخدام كلمة الهيلاس Hellada في أعمال المؤرخين البيزنطيين خلال القرنين اليابديين السادس والسابع والثامن ، أمثال بروكوبيوس Procopius أجاثياتس Agathias ، ميناندر Menander ، أفاجريوس Avagrius ، ماللاس Mallas ، الامبراطور جستيان في قوانينه الجديدة Novellae ، نيقفورس Nicephorus ، يوحنا الانطاكي John of Antioch البطريريك تقى Patriarchae ، ثيوفانيس Theophanes ، وغيرها .

(1) Evagrius : Historia Ecclesiastica , VI , Ch. 10 .

(2) Toynbee : Op. cit , P. 634 .

وقد أثبت كارانيس من خلال دراسته هذه ، أن بروكبيوس حين ذكر كلمة الهيلاس Hellada ، فإنه كان يعني أقاليم بلاد اليونان القديمة ، وعلى وجه التحديد الأقليم الذي يقع جنوب ثرموبيلادي Thermopylae (Boudonitza) في أقليم تساليا ، ويشمل أيضاً شبه جزيرة البلوبينيز Ploponnesus ، وأن المؤرخين الذين جاموا بعد بروكبيوس قد أخذوا عنه هذا التعريف لكلمة الهيلاس^(١) .

لذلك فما عناء المؤرخون - خاصة ميناندر ، افاجريوس ، وثيفانيس ، ببلاد اليونان التي خربها الآفار والسلاف إنما هي بلاد اليونان بما فيها البلوبينيز أيضاً.

وعلى أثر هذه الغارة الدمرة التي قام بها الآفار ضد ممتلكات الإمبراطورية في عام ٥٨٢ - ٥٨٣ ، إضطر الإمبراطور موريس لشراء السلام منهم ، بدفع مبلغ كبير من المال علوة على الجزية السنوية المعهودة^(٢) . لكن الآفار لم يخلوا للسکينة في الفترة التالية بل هدروا السلام في عام ٥٨٦ - ٥٨٧ م. حين قاموا ورعاياهم السلاف بغارة أخرى كبيرة ، شملت الأقاليم التي تقع جنوب مؤيزيا Moesia السلاف وسكتيا Scythia ، ثم حاصروا المدينة الهاامة سالونيك^(٣) في ٢٢ سبتمبر ٥٨٦.

(1) Charanis P. : Hellas in the Greek Sources of Six th , Seventh , and Eighte Centuries , in late Classical and Medieval Studies in Honor of Albert Mathias Friend , princeton university press university press , 1953 , PP. 161 - 173 .

(2) Hauptmann : Les Rapportes , P. 157 .

(3) تعتبر مدينة سالونيك ، المدينة الثانية في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية ، وأهم قاعدة للfleet البيزنطي في البحر الأيجي ، ومرداً لإصلاح السفن التي يصيبها التلف ، وهي عاصمة أقليم مقدونيا .

عن كل ما يتعلق بسالونيك ومميزاتها ونشاطها التجاري راجع :

اسم غنيم : الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ، دار المعارف ، الإسكندرية =

ولدة سبعة أيام ثم رفعوا الحصار عنها وهاجموا بلاد اليونان (الهيلاس) ^(١).

وقد أقدم خان الآفار علي تصرف خطير ، كانت له نتائج بعيدة المدى ، بالنسبة لتوزيع الخريطة السكانية في منطقة البلقان وببلاد اليونان قاطبة . فقد أخذ خلال غزواته في أعوام ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٦ م. في إجبار السكان الأصليين من اليونان والرومان علي الرحيل ، وأحل محلهم عناصر أخرى من رعاياه السلف ، وسجل ذلك كل من المؤرخين أناجريوس ، يوحنا الإفسوسي ، ويوحنا بيكلازنيسيس ^(٢).

وقد تابع خاقان الآفار هذا الأسلوب فيما قام به بعد ذلك من غزوات ، وكان السكان الأصليون من اليونان والرومان يغرون أمام غزوات الآفار لمنطقة البلقان وببلاد اليونان ، بينما تكفل الخاقان بنقل الباقين منهم وابعادهم عن أوطانهم ، وإعادة توطين سكان جدد من رعاياه في هذه الأماكن .

والأرجح أن الدافع لهذا التصرف الخطير ، هو رغبة الخاقان في إحتلال هذه المناطق إحتلالا دائمًا ، فضلا عن تأمين حدود امبراطوريته الشاسعة لا سيما وأن المنطقة الواقعة شمالي البلقان وحتى سيرميا كانت منطقة حيوية بالنسبة له ، حيث أنها تعتبر رأس الجسر لعبور الدانوب والوصول إلى امبراطوريته .

= ١٩٨٣، من ص ١٩٣ - ١٩٥ .

(1) Evagrius : VI , Ch. 10 .

Theophylactus Simocatta : I , P. 52 .

Theophanes : P. 253 .

(2) Evagrius : VI , Ch. 10 .

John of Ephesus : Ecclesiastical History , PP. 432 - 433 .

Johannes Biclaresc : Chronica , 215 .

ولم يتخل الخاقان عن سياسة هذه ، بل تابعها في السنوات التالية ، وتتضح هذه السياسة بصورة أوضح من خلال عرضنا التالي للحوادث .

فقد استغل الآفار انشغال الامبراطور مورييس في الحرب ضد الفرس ، وأخروا يعيشون فساداً هم ورعاياهم من السلاف وبباقي العناصر الأخرى الخاصة لهم، في إقليمي تراقيا ومقدونيا ، وفي عام 592 م. تمكّن الامبراطور مورييس من عقد الصلح مع الفرس وهيا له ذلك الالتفات إلى جبهة الدانوب ، فنقل قواته إلى هناك ، وعهد إلى قائد بريسيقوس Priscus بالعمل على ايقاف غارات الآفار والسلاف هناك . ورغم جهود بريسيقوس لتحقيق هذا الهدف ، الا أن الآفار والسلاف تمكنا من الاغارة على المدينة الهامة سالونيك في 597 م. ولم ينتصرا منهم هذه المرة الا تتشي مرض الطاعون بينهم (١) .

على أية حال نجح بريسيقوس في النهاية في إخضاع السلاف واستعاد مدينة سنجيد ونوم (بلغراد) من يد الآفار . وفي عام 600 م. ، جري عقد الهدنة مع الآفار وثبتت حدود الامبراطورية على نهر الدانوب ، وتعهد مورييس بزيادة الجزية السنوية لهم غير أنه لم يك يمضي سوى عدة شهور حتى عبر بريسيقوس بقواته نهر الدانوب سنة 601 م. وأشعل الحرب ضد الآفار هناك ، وأنزل الهزيمة الساحقة بقوات الآفار على نهر تيس Theiss (٢) .

واعل في ذلك ما يوضح سياسة بيزنطة التقليدية ، فاذا كانت بيزنطة غير

(1) Theophylactus Simocatta : VII , PP. 6 - 9 .

Baynes : The Successors of Justinian , in C. Med. H. Vol II , P. 296 .

Brehier : Vie de l'Empereur de Byzance , PP. 50 - 51 .

(2) Baynes : Op. cit. p. 281 .

قادرة على خوض غمار الحرب لأي سبب من الأسباب ، كان الإمبراطور يتهدى بدفع مبلغ سنوي للعدو ، وليس عليه العدو جزية سنوية إن شاء ، أما الإمبراطور فلم يكن يرى ذلك المبلغ المدفوع إلا استثماراً حكيمًا حتى تتحسن الظروف ويصبح قادراً على القتال ، وعندئذ يتوقف عن الدفع ويخوض الحرب ، فإذا انتصر امتنع نهائياً عن الدفع ، أما إذا هزم فإنه يعود ليدفع من جديد ، في انتظار جولة أخرى^(١) .

على أية حال فمن الواضح أن الانتصار الذي أحرزه بريسيوس على الآفار في ٦٠١ م. عند نهر تيس ، لم تحرز الإمبراطورية البيزنطية مثله منذ زمن جستينيان، إذ بدا وكأن الحظ أخذ يتحول إلى صف الإمبراطورية ، لو لا أن الحوادث جاءت على عكس ما يتوقع موريس ، الذي إستبدت به الحماسة لمواصلة ظفرة علي الآفار ، فأبى أن يسمح لجنته بالعودة إلى العاصمة لقضاء فصل الشتاء (٧٠٢ م.) فتعمد الجندي عليه ، ونادوا بأحد قادتهم ويدعى فوقياس إمبراطوراً ، وزحفوا علي العاصمة (القسطنطينية) وقتلوا الإمبراطور موريس ، ورفعوا فوقياس إلي العرش (٦٠٢ م.) . وكان عهد فوقياس كارثة بالنسبة للحدود الشمالية للإمبراطورية بل إمتد الخطر خلال السنوات الأولى من حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م.)^(٢) ، لأن حد التحصينات علي الحدود الشمالية ، الذي كان جستينيان قد بناء ، واصل انهياره آنذاك ، ولم تعد هناك قوات بيزنطية في ولاية داماشيا بعد عام ٦٠٤ م.^(٣) فتدفق الآفار والسلاف بأعداد هائلة علي منطقة البلقان ، وأخروا يعيشون فساداً في تلك

(١) للمزيد من نظام الدبلوماسية البيزنطية راجع :

Runciman : Byzantine Civilisation , Cambridge , 1975 , PP. 155 - 162 .

(2) Theophylactus Simocatta : VIII , PP. 5 - 6 .

Obolensky : Op. cit , P. 481 .

(٣) موسن : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٣١ .

البلاد من البحر الادرياتي حتى بحر ايجية ، وانتشروا في الليريا ، دالماشيا ، مقدونيا ، تراقيا ، ابيروس ، أخايا ، السيكلاديز ، وقد هوجمت سالونيك أكثر من مرة ، وسقطت سالونا Salona عاصمة اقليم دالماشيا في يد الآفار والسلاف في عام ٦١٤ م. ، وهرب سكانها إلى أسفل التل يلتمسون الحماية داخل أسوار قصر دقليانوس الضخم ، وهكذا نشأت مدينة سبالاتوس Spalato . وحدث الشيء نفسه مع سكان مدينة ابيدورس Epidaurus ، الذين فروا من مدinetهم واستقروا على ساحل البحر الادرياتي في المكان الذي عرف فيما بعد باسم راجوزا I Sidore Bishop of Ragusa

(1) Baynes : Op. cit , P. 296 .

(2) يسمى بالقديس ايزيدوروس St. I Sidorus ، وهو ينتمي إلى عائلة نبيلة ، فقد أبوه وهو في سن صغيرة ، نقول شقيقه الأكبر ويدعى لياندر Leander تربيته وتعليمه ، وكان لياندر يشغل أسقف أشبيلية فكان من الطبيعي أن يوجه ايزيدور إلى تعليم الاهوت . وقد تأثر ايزيدور باراء القديس أوجسطين (٢٥٤ - ٤٢٠ م.) والبابا جريجوري الأول (٥٤٠ - ٦٠٤ م.) . وفي عام ٦٠٠ م. أصبح ايزيدور أسقفاً لأشبيلية خلفاً لشقيقه ، وأخذ على عاتقه نشر المذهب الكاثوليكي بين القوط الغربيين ، وباليهود الذين كانوا يمثلون جزءاً كبيراً من سكان أسبانيا وقد كان لعلمه الغزير وشخصيته القوية أكبر الأثر في أن يصبح زعيماً هاماً للكنيسة الأسبانية ، ورأس عدة مجتمعات دينية في توليدو ، وأطلق عليه معاصره لقب (آخر آباء الكنيسة الغربية العظام) .

ومن أهم أعمال القديس ايزيدور تلك الموسوعة الشاملة التي أطلق عليها اسم Ethymologiae ، ولخص فيها آراء الكتاب المسيحيين الأول في العقيدة المسيحية ، وكذلك كتابات العلماء القدماء في مختلف أنواع المعرفة الإنسانية ، وتلخص أهمية هذه الموسوعة ليس فقط في محتراماً ، ولكن في كثافة عرض ايزيدور لأنكاره ، وقد أصبحت هذه الموسوعة مصدراً هاماً لكتاب من أجيال متعددة ، وخاصة الذين لم يكن بمقدورهم التعرف على المصادر القديمة (الكلاسيكية) وخاصة المكتوبة باللغة اليونانية . وإلى جانب هذه الموسوعة الهامة هناك كتابين تاريخيين لايزيدور ، الأول هو (التاريخ الكبير أو الموليات الكبيرة) =

(1) في بداية عهد الامبراطور هرقل يقول : " ان السلاف انتزعوا بلاد Seville اليونان من الرومان " .

وان كانت هذه المقوله تتطبق على المناطق الداخلية في شبه جزيرة البلقان ، الا أنها لا تتطبق على المناطق الساحلية المواجهة للبحر الادرياتي والبحر الایجي ، لأن السكان الأصليين انسحبوا تحت ضغط السلاف والأفار نحو المناطق المتاخمة للبحر ، وإلى الجزر المواجهة له ، وأدبي ذلك فيما بعد إلى ازدياد العنصر اليوناني وتفوقه على السواحل الجنوبية الشرقية ، علي حين عدم العنصر الروماني إلى الاستقرار في السواحل الغربية ، أما الجانب الأكبر من شبه جزيرة البلقان وخاصة داخليها ، فقد أصبح أقليماً صقلبياً ، وصارت المصادر البيزنطية تشير إليه على أنه Chronica Maiora == والكتاب الثاني هو ، (تاريخ ملوك القوط ، والأندلس ، والسيفيли) ويعتبر هذا الكتاب مصدراً هاماً لتأريخ إسبانيا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة في ٤٧٦ م. حتى عصر ايزيدور .

للمزيد عن القديس ايزيدور وأعماله راجع :

Fortaine J. : I Sidore de Seville et la culture Classique dans l'espagne wisigothique , 2 vols , 1959 .

(1) سيفيل هي مدينة أشبيلية وهي ميناء بحري هام في جنوب إسبانيا ، وقد تعرضت لغزو الواندال في أواخر القرن الرابع الميلادي ، ثم استولى عليها القوط الفربين وفتحها المسلمين في عام ٧١٢ م. وأصبحت جزءاً من ممتلكات خليفة قرطبة ، وبلغت درجة كبيرة من الازدهار ، وأصبح ميناً لها من أكثر الموانئ الإسبانية تشارطاً ، وفي عام ١٢٤٨ م. ، استولى عليها الملك فرديناند الثالث ملك قشتالة ، وواصلت المدينة ازدهارها ونشاطها التجاري الكبير تحت حكمه .

للمزيد عن سيفيل راجع :

O'Callaghan J. F. : A History of Medieval Spain , 1975 .

(2) I Sidore of Seville : Chronica Maiora , in Patrologia Latina , LXXX III , col 1056 .

اقليم الصقالبة (١) Sclavinia .

وفي الوقت الذي كان الآفار يقومون بغاراتهم تلك على شرق أوروبا ، لم يغفلوا أمر ايطاليا وواصلوا تحالفهم مع اللومبارديين ، ففي عام ٥٩١ م. ساعدهم ملكهم Agilulf في الهجوم على الحدود الشمالية الإيطالية ، وفي عام ٦٠٠ - ٦٠١ م. ساعدهم أيضاً في الاستيلاء على بانوا Padua ، وفي تخريب شبه جزيرة استريا Istria على الساحل الشمالي للبحر الادرياتي ، كما ساعدهم في فتح مدينة مونسليس Monselice . وفرضوا السلام علي بوق فريولي Friuli واحتلوا كريمونا Cremona ، ومانتوa Mantua في عام ٦٠٣ م. (٢) .

علي ان الآفار لم يقيموا بعد ذلك وزنا للمعاهدات المبرمة بينهم وبين اللومبارديين ولم يلبثوا أن أخروا يشنون غاراتهم على شمال ايطاليا ، فقد حشد خاقان الآفار جيشاً كبيراً عام ٦١٠ م. وخرج على رأسه قاصداً الراصي اللومباردية ، وتوقف في شمال ايطاليا محدثاً الخراب والدمار في كل مكان حل به ، ثم اتجه بجيشه إلى البندقية ، فتصدى لهم ، جيسولف Gisulf بوق فريولي ، ولكنه قتل على أيديهم هو ومعظم جيشه ، وفرض الآفار الحصار على بوقية فريولي ، فنالت روميلدا Romilda أرملة جيسولف الدفاع عن المدينة ، ويقال أنها رأت خاقان الآفار أثناء تقاده أسوار المدينة ، فاعجبت به وأرسلت إليه سراً تخبره أنه اذا وعدها بالزواج فأنها سوف تفتح له بوابات المدينة ، وبالفعل تم الاتفاق بينهما ،

(1) Lemerle : Invasions et migrations dans les Balkans , P. 303 ff.

Ostrogosky : Op. cit , PP. 93 - 94 .

Vasiliev : Op. cit , P. 196 .

(2) Hartmann : Italy under the Lombards , P. 20*

وسلمت له المدينة ، وقد أجري الآفار عمليات نهب وسلب واسعة النطاق لكل بيت من بيوتها ، وحملوا الأهالى أسرى ، وقد أوفى الخاقان بوعده بالزواج من روميلا ، ولكن ليوم واحد فقط ، ثم دفع بها إلى أتباعه ، وانتهى بها الأمر إلى القتل على أيديهم ، ثم عاد الآفار بغنائمهم إلى بانونيا ^(١) .

للم تستقر غارات الآفار على إيطاليا طويلا ، وذلك بسبب انشغالهم بتحقيق أهدافهم في شبه جزيرة البلقان ، وفي العاصمة البيزنطية نفسها .

فقد شهد عصر الامبراطور هرقل (٦١ - ٦٤١ م) صراعاً عنيفاً بين البيزنطيين من جهة ، والآفار من الجهة الأخرى ، ولا تكون مبالغين إذا قلنا أنه كان صراع حياة أو موت بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، بعد أن فرض الآفار ورعاياهم من السلاف والجبيداي والبلغار والسيكتيين وغيرهم من القبائل ، الحصار البري والبحري على العاصمة البيزنطية وذلك في عام ٦٢٦ م . عاقدين العزم على الاستيلاء عليها ومستقلين انشغال الامبراطور هرقل في حربه مع الفرس الذين شنوا هجوماً هنيفاً على الممتلكات البيزنطية في أرمينية وأسيا الصغرى ومصر ، وبعد أن وصل الفرس إلى مدينة خلقيونية Chalcedon على الضفة الآسيوية لمضيق البوسفور ، وأصبحوا في مواجهة العاصمة البيزنطية القسطنطينية .

ورغم صعوبة الموقف بكل أبعاده ، وتأزمته إلى درجة خطيرة ، بعد أن أصبحت

(1) Paul the Deacon : History of the Lombards , PP. 179 - 180 .

Hadckin : Italy and her invaders , PP. 52 - 53 , 600 , 744 ,

Hartmann : Italy under the Lombards , P. 203 .

محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطى ، من ٢١٦ .

أسامة زيد : اللومبارديون ، من ٢٤ - ٢٥ .

بيزنطه وجهها لوجه أمام العدوين اللذين طالما ارتعدت منها ، وهما الفرس والأفار ، الا أن التوفيق الذي حققته بيزنطه في مواجهة هذين العدوين والانتصار الذي احرزته عليهما ، يرجع إلى عبرية الاميراطور هرقل وخطشه العسكرية الناجحة في مواجهة الفرس والأفار من جهة ، ومن جهة أخرى يرجع إلى تلامح القوى البيزنطية المختلفة من شعب وجيش وبنبلاء وكنيسة في مواجهة هذه الأخطار جميعا .

ويتميز الصراع بين الأفار والدولة البيزنطية في عهد هرقل بتشابك أحداثه مع أحداث الحرب بين البيزنطيين والفرس ، حين وجد الأفار في هذه الحرب فرصة لهم الذهبية لتحقيق أطماعهم والاستيلاء على العاصمة البيزنطية ذاتها .

ونظرا لأن الحرب البيزنطية الفارسية (١) قد اتسع نطاقها ، وكثرت أحداثها ، واستغرقت فترة زمنية طويلة ، ونظرا لأنها ليست الموضوع الرئيسي في هذا البحث ، لذلك تتم الإشارة إليها سريعا دون الدخول في التفاصيل ، بما يخدم موضوعنا الرئيسي ويلقي الضوء عليه فحسب .

فقد استائف الفرس حربهم ضد بيزنطه وتابعوا تفلسفهم في منطقة الشرق

(١) بخصوص الحرب البيزنطية الفارسية بكلفة تفاصيلها راجع :

Pisidia : De expeditione persica . Heraclias , in C. S. H. B. ed. Bonnae , 1838 - 1839 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium , ed . , De Boor , Leipzig , 1880 .

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 92 - 109 .

Vasiliev : Op. cit , PP. 194 - 199 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , PP 53 - 57 .

Baynes : The Successors of Justinian , C. Med. H. vol II , PP. 287 - 300 .

الأدنى ، ورغم ما حققته بيزنطية من انتصار على الفرس في عام ٦١١ م. بعد أن أجبرتهم على الانسحاب من قيصرية ، الا أن الهجمات البيزنطية المضادة في سورية وأرمينية انتهت بالفشل ولم تحقق ما هدفت اليه ، ومنيت الجيش البيزنطي أمام الفرس بهزيمة كبيرة عام ٦١٢ م. بالقرب من انطاكية مما ساعد الفرس على تقوية مراكزهم في معظم المناطق التي هاجموا بيزنطية فيها ، فتقدموها باتجاه الجنوب واحتلوا دمشق في عام ٦١٤ م. ، ثم ساروا شمالاً إلى قيليقية واحتلوا قلعة طرسوس الحصينة ، كما تمكنوا من طرد البيزنطيين من أرمينية .

وأعل أقسى الضربات التي تلقتها بيزنطية في هذه الحرب هي احتلال الفرس لمدينة بيت المقدس ، بعد أن حاصروها لمدة ثلاثة أسابيع ، وحين دخل الفرس المدينة أشعلوا فيها الحرائق وأعملوا القتل والذبح في سكانها لعدة أيام ، وخررت نتيجة هذه الحرائق ، كنيسة القبر المقدس ، ووقع في قبضة الفرس الصليب المقدس ، أو صليب الصليبيين ، الذي يعتبرونه أقدس الآثار المسيحية ، والذي تملأوا كثيراً لفقدانه إذ حمل الفرس هذا الصليب إلى عاصمتهم المدائن . وفي سنة ٦١٥ م. عاود الفرس هجماتهم على آسيا الصغرى ، وتغلت بعض فرقهم حتى كريسيوبوليس على اليسفور .

ويبدو أن خاقان الآفار وجد في هذه الظروف التي كانت تمر بها الامبراطورية البيزنطية الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافه ، فتقدم في يونيو ٦١٧ م. بطلب مقابلة الإمبراطور هرقل ، فاستجاب الإمبراطور لطلبه ، ورتب أمر هذه المقابلة، بطريق أثناسيوس ، وزير الخزانة كوزماس ، وتمت المقابلة في مرقلية Heraclea وهي أحدى ضواحي القسطنطينية ، وتقع إلى الشرق منها وتنطل على بحر مرمرة ، وتوقع هرقل أن يطلب الخاقان زيادة الجزية السنوية التي يدفعها للأفاري ، لكن ما

لبت أن خاب ظن الامبراطور حينما لم يعرض الخاقان لهذا الموضوع ، وإنما طلب ما هو أفضل وأثمن ألا وهو تسليم العاصمة البيزنطية نفسها ^(١) .

وكان من الطبيعي أن يرفض الامبراطور هذا الطلب ، ومن إشارة بسوط الخاقان ، اندفع الآفار من مخاينهم نحو الامبراطور الذي أدرك مدى الخطير الذي يواجهه ويتعرض له العاصمة البيزنطية ، فخلع تاجه وعبأته الأرجوانية ، وأخفاها تحت ذراعه ، وانطلق هاريا ، فأخير الحامية والأهالي بالخطر الذي يات يتهددهم ، وما لبست حشود الآفار أن أخذت تتدفق إلى سهل ميدومون Hebdomon على الطرف الجنوبي الشرقي للقسطنطينية ، حيث نهبوا كنيستي القديس كوزماس والقديس داميان ، ثم عبروا إلى القرن الذهبي وهو إلى الغرب من العاصمة ، حيث هاجموا كنيسة كبير الملائكة Archangel ، وحطموا المائدة المقدسة بها ، ووقع في أيديهم أعداد هائلة من الأسرى والسبايا ، جمعوهم من ضواحي القسطنطينية ، ويدرك المؤرخ نورمان بينز أن عددهم وصل إلى المائتين وسبعين ألف رجل وإمرأة . وإن كان هذا الرقم يبدو مبالغًا فيه ، وعاد الآفار بالفتقام والأسرى إلى ما وراء الدانوب ^(٢) .

وفي ربيع عام ٦١٩ م. غزا الفرس مصر أغنى أقاليم الامبراطورية البيزنطية، فأدى ذلك الغزو إلى نقص امدادات العاصمة القسطنطينية من الماء ، لاسيما القمح الذي كان يصلها من مصر . وهكذا أصبحت معظم ولايات الشرق

(1) Baynes : Op. cit , P. 291 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 54 .

Ostrogorsky : Op. cit , P. 95 .

(2) Baynes : Op. cit , P. 291 .

الآن في قبضة الفرس ، وبدأ وكأنهم سيسترجعون أمجاد امبراطوريتهم القديمة .
ويبلغ من سوء الأحوال في بيزنطة أن فكر الامبراطور هرقل ، في نقل عاصمته من
القسطنطينية إلى قرطاجة Carthage في شمال أفريقيا ، ليقود من هناك حركة
المقاومة ضد أعدائه المتربيسين به من كل ناحية . لكنه لقي معارضة شديدة من جانب
البطيريك سيرجيوس Sergius ، الذي نجح في اقناع الامبراطور بالتخلص عن
هذه الفكرة ، ووضع تحت تصرفه ثروة الكنيسة من الذهب والفضة لاستخدامها في
مواجهة هذه الأزمة ، كما أصلحت الكنيسة ذات البين بين حزبي الخضر والنقد ،
وتفهم الجميع حدود وأبعاد الخطر المحدق ببيزنطة حتى بلغ الأمر إلى حد أن توزيع
الخiz مجانا ، وهو حق لأهالي العاصمة وامتيازا لهم منذ افتتاح قسطنطين الأكبر
للهادىء البيزنطية في مايو ٣٣٠ م . قد أمكن إيقافه دون حدوث اضطرابات خطيرة
بين الأهالى لفقدانهم هذا الامتياز (١) .

ولما كان الامبراطور يريد أن يتفرغ لحربه في آسيا ضد الفرس ، فقد وقع
معاهدة صلح مع خاقان الآفار في عام ٦١٩ م . ، وتعهد له بدفع مبلغ كبير من المال
كجزية سنوية ، ثم عين الامبراطور هرقل مجلس وصاية على ابنه وولي عهده
قسطنطين الثالث ، ورأس هذا المجلس البطيريك سيرجيوس والماجستر يونيوس ،
وفي يوم الاثنين ٥ أبريل ٦٢٢ م . أقيم احتفال ديني كبير للإمبراطور غادر على أثره
العاصمة إلى آسيا الصغرى ، حيث قضى الصيف بكامله يدرب جنوده ، ثم بدأ
القتال مع الفرس في الخريف من نفس العام ٦٢٢ م . وتمكن عن طريق مناورة
عسكرية بارعة أن يشق طريقه إلى أرمينيا وأجبر الفرس على ترك مواقعهم في

(1) *Nicephori Patriarchae : Breviarum , PP. 10 - 12 .*

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 92 - 93 .

موسن : ميلاد العصور الوسطى ، ص : ٢٢٣ .

المرات الجبلية في آسيا الصغرى ، فتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي على أرض أرمينية ، وجرت بينهما معركة كبيرة انتهت بانتصار البيزنطيين وبذلك حقق هرقل أول أهدافه ، وحرر آسيا الصغرى من الفرس الذين كانوا يحتلون بعض مقاطعاتها^(١).

وأثناء غياب الامبراطور هرقل عن عاصمته القسطنطينية حاول الآفاري أن ينقض الصلح مع البيزنطيين ، لكن هرقل عاد سريعا إلى العاصمة ، وزاد في مقدار الجزية التي كان يدفعها للآفاري بناء على الاتفاق السابق بينهما كما أرسل بعض أقربائه كرهائن لديهم^(٢) ، وذلك حتى لا تفتح أمامه جبهة قتال ثانية مع الآفاري ، يكون لها تأثير سلبي على حرية مع الفرس .

وشهد عام ٦٢٦ م. أحداثا هامة وخطيرة في الصراع الدائر بين البيزنطيين والفرس من جهة ، وبين البيزنطيين والآفاري من جهة أخرى ، فقد حسم حاكم الفرس كسرى الأول انشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) علي حشد جيشه لسحق البيزنطيين وقادت خطته علي أساس أن يستوقف أحد جيشه هرقل بينما يزحف جيش آخر علي خليجية Chalcedon وبهاجم العاصمة (القسطنطينية) ، ومن أجل ذلك اتصل الفرس بالآفاري أعداء بيزنطة ، وقام تحالف بين الفرس من جهة والآفاري ورعاياهم من الجهة الأخرى^(٣) وكان هذا التحالف هو ما يخشاه هرقل ، وربما من

(1) Baynes : Op. cit , PP. 292 - 293 .

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 100 - 101 .

(2) Ostrogorsky : Op. cit , P. 101 .

Baynes : Op. cit , P. 292 N. 2.

(3) Baynes : Op. cit , P. 295 .

Vasiliev : Op. cit , P. 197 . ==

أجل ذلك كان يحاول دائماً أن يشتري ود الأفار بدفع الجزية لهم وزيادتها مرة تلو الأخرى ، حتى لا يضطر لخوض حرب ضد خصمين في وقت واحد . ولكن حدث في ذلك العام (٦٢٦ م.) ما كان يخشاه هرقل ويحاول تفاديها ، وهو تعرض العاصمة البيزنطية للحصار براً وبحراً .

ففي الوقت الذي ظهر فيه القائد الفارسي شهر برانز أمام مدينة خلقينية في أول يونيو ٦٢٦ م. حيث قام باحرق ضواحي المدينة بكل ما تحتويه من كنائس ودور للسكن ، انتظر الفرس وصول الأفار ، الذين ظهرت مقدمة جيشه أمام مدينة أدرنة في يوم الأحد ٢٩ يونيو وأصبح موقف بيزنطة في غاية الخطورة ، لهذا حاول البيزنطيون تقويض هذا التحالف الفارسي الأفاري ، وأرسلوا إلى الخاقان رسولاً بيزنطياً هو البطريق أثاناسيوس Athanasius الذي عرض استعداد البيزنطيين قبول كل طلباته واجابة رغباته على شرط واحد فقط هو أن يتخلّي عن خططه في غزو القسطنطينية ، لكنه رفض وأكمل الأفار سيرهم حتى وصلوا إلى الضواحي الشرقية للعاصمة وذلك في يوم ٤ يوليه ٦٢٦ م. ، وأرسلوا نوريات استطلاعية تجاه القسطنطينية قامت بعملي إنزالات بجيش الفرس المرابط أمام خلقينية ، عن طريق أشعال النيران ، كما قاموا بتخريب القناة المائية التي تتد العاصمة بالمياه ، وفي يوم الثلاثاء ٢٩ يوليه ٦٢٦ م. وصل الأفار بجيشه كاملاً إلى أسوار العاصمة البيزنطية وكان جيشه يبلغ عدده نحو ثمانين ألف رجل من الأفار والسلاف والجبيداي والبلغار والسيكتيين وغيرهم من القبائل الأخرى الخاضعة للأفار ، وعسكروا أمام الأسوار الواقعة في الجهة الشرقية من

— Brehier : Op. cit , P. 56 .

القسطنطينية^(١).

وقد اتخذ الماجستر بونوس عدة اجراءات سريعة من أجل الدفاع عن القسطنطينية ، بينما أخذ البطريرك سيرجيوس يشجع ويقوي من عزيمة الشعب ، الذي كان يعاني من شدة الخوف ، وقد أرسل الامبراطور هرقل الذي كان بعيداً عن عاصمه يقاتل الفرس فصيلة من جيشه لتقوية دفاعات العاصمة وكلفها بابلاغ المسؤولين في بيزنطة بأوامر الامبراطور الخاصة بخليط الدفاع ، وأخذ البطريرك بونوس والبطريرك سيرجيوس يتقدان الأسوار ويلهيان حماسة المدافعين عنها^(٢).

وفي يوم الخميس ٣١ يوليه أخذ الآفار يتقدون الأسوار ، ووقع اختيارهم على المكان المتوسط من الأسوار ، الواقع بين بابي بعيتون Pempton ، وبوليانتيون Polyandzion في جنوب القسطنطينية ، وركزوا على هذا الجزء من الأسوار ، وحشدوا أمامه الجانب الأعظم من قواتهم ، فكان السلف علي خط المواجهة ، يليهم الآفار ، أما باقي الأسوار فقد حشدوا أمامها قوات من السلف وبباقي العناصر الأخرى المشتركة معهم والخاضعة للآفار .

(1) Pisidia : Bellum Avaricum , ed . Bekker , in C. S. H. B. , Bonnae , 1838 - 1839 , V , PP. 194 - 201 , 401 .

Theodore Syncellus , ed . Sternbach , Analecta Avarica , Seorsum . impressum ex tomo XXX , Dissertationum philologicarum Academiae , Litterarum Cracoviensis , 1900 , PP. 8 , 21 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium ed. de Boor , Leipzig , 1880 , PP. 17 , 25 .

Theophanes : Chronographia , ed. de Boor , Leipzig , 1883 , P. 315 .

(2) Theodore Syncellus , PP. 9 , 12 .

Barisié F. : Le Siège de Constantinople , par les Avares et les Slaves en 626 , dans (Byzantion) revue internationale des Etudes Byzantines , tome XXIV , Bruxelles , 954 , P. 380 .

ويبين أن الآفار قد أدركوا أنه ينبغي أن تحاصر القسطنطينية بحرا أيضا ، لأن العاصمة كانت تمثل رأس مثلث يطل ضلعان منه على المياه بينما يطل الضلع الثالث على البر ومحصارها من البر فقط يتبع لها أن تحصل على المؤن والأغذية والامدادات العسكرية عن طريق البحر فيطول الحصار ويفشل في النهاية ، وإذا حوصرت بحرا فقط ، فإنها تستطيع أن تحصل على ما يلزمها من مون عن طريق البر ، ويطول الحصار ويفشل أيضا ، لذلك استعلن الآفار باسطول السلف وحاصروا القسطنطينية بحرا وكان تركيزهم أشد ما يكون على مياه القرن الذهبي في التاحية الغربية من العاصمة.

وقد اقتصرت الحرب بين الطرفين البيزنطي والأفاري حتى ذلك الوقت ، على المنشآت المحدودة ، سواء في البر أو في البحر على حد سواء ، وأرسل الماجستير بونوس إلى خاقان الآفار يعرض عليه أن يرفعوا الحصار عن القسطنطينية ويرحلوا ، مقابل أن يدفع لهم تعويضا ماليا كبيرا ، بالإضافة إلى الجزية السنوية ، لكن الخاقان رفض هذا العرض ، وأصر على أن يتم تسليم العاصمة له ، بعد إخلائها من أهلها ، الذين عليهم أن يغادروها دون أن يحملوا معهم أية أمتعة أو ثروات⁽¹⁾ .

ويبين أن خاقان الآفار رأى أنه تشدد في مطالبه ، وأراد أن يفتح باب المفاوضات مع البيزنطيين من جديد ، فأرسل إلى المسؤولين في بيزنطة يوم الأحد ٢ أغسطس ٦٣٦ م. يطلب إرسال سفارة إليه من أجل التفاوض ، وبعد مشاورات في القصر الإمبراطوري بين ولی العهد قسطنطين الثالث ، والبطريرك سيرجيوس ، والماجستير بونوس ، ورجال مجلس الشيوخ (الستانتو) فتقرر إرسال وقد إلى

(1) Theodore Syncellus , PP. 15 - 20 .

Barisié : Le Siège de Constantinople , P. 383 .

الخاقان على رأسه رجل الدين ثيودور سنكيلوس ، حاملين معهم الهدايا الثمينة للخاقان ، وعرضن بيزنطة للسلام ، ويبدو أن القائد الفارسي شهر براز الذي كان يعسكر أمام مدينة خلقينية ، قد علم بأمر هذه المفاوضات ، فسارع بالعمل على تقويضها ، فارسل ثلاثة رسل من طرفه إلى الخاقان وافقه في معسكره ، واجتمعوا به ، ويبدو أنهم حرضوه ضد البيزنطيين إذ سرعان ما تغيرت سجنهاته ولهجته مع الرسل البيزنطيين " مثلاً تغير الحرباء " على حد تعبير ثيودور سنكيلوس ، فعاد يصر من جديد على ضرورة أخلاق القسطنطينية من أهلها وتسليمها إليه . وعندئذ رفض الرسل البيزنطيون شروطه وغادروا معسكره عائدين إلى القسطنطينية ^(١) .

كان ذلك مبرراً لاشتعال المعركة بين البيزنطيين وجيش الآفار برا ويحرا في يوم الأربعاء ٦ أغسطس ٦٢٦ م. واستمر القتال على امتداد الأسوار طوال النهار وجاء من الليل ، أصيب خلاله الطرفان بأضرار بالغة ، وإن كانت خسارة الآفار أكبر من خسارة البيزنطيين ، واستونف القتال يوم الخميس ٧ أغسطس ، واحتللت أصوات آلات القتال بصيحات الحرب المرعبة ، في نفس الوقت جرت معركة بحرية كبيرة بين الأسطول البيزنطي وأسطول المهاجمين كان مسرحها خليج كيراس Keras في القرن الذهبي ، وتمكن الآفار من الاستيلاء على ملحقات قصر بلاكتناري ، الذي يقع في الزاوية الجنوبية الغربية من القسطنطينية ، وأخذوا في الاقتراب من القصر شيئاً فشيئاً ، لكن الماجستير بونوس أصدر أوامره للسفن الحربية بالاتفاق حول سفن العتدين فأحاطوا به من كل جانب واشتعل القتال ، واندفع المقاتلون من الجانبين مهاجمين بالرماح والسيوف والحراب ، وتقدّم البيزنطيون سفن عديدة لاعدائهم ففرقوا بمن فيها ، وكثير عدد القتلى الذين ذبحوا

(1) Theodore Syncellus : PP. 11 , 14 - 40 .

Pisidia : Bellum Avaricum , PP. 323 - 348 .

بسيف البيزنطيين ، لدرجة أن اصطبغت مياه البحر باللون الأحمر لكثرة ما سال فيها من دماء ، وأبلی المقاتلون الأرمن في الأسطول البيزنطي بلا حسنا وقتلوا وأغرقوا عددا كبيرا من البحارة السلف ، ونجحت أعداد أخرى منهم في السباحة والوصول إلى الشاطئ ، لكن خاقان الآفار الذي كان يراقب المعركة أمر بقتلهم حتى يجبر الباقين منهم على القتال وعدم الفرار ، الا أن أعدادا أخرى منهم أثرت القرار والاختباء في الجبال ، وانتهي أمر أسطول الآفار تماما في هذه المعركة ، وامتلاك مياه القرن الذهبي القريبة من قصر بلاكتناي بجثث القتلى وبالنوارق الخاوية التي تتقاذفها المياه هنا وهناك ، وحينما أدرك خاقان الآفار أنه خسر المعركة ، أسرع إلى خيته وجثي على ركبتيه وظل يلطم رأسه ومصدره^(١) .

وأعلن المدافعون عن القسطنطينية نبأ انتصارهم على الملا ، ودفعوا رئيس التثلی من الأعداء فوق رماحهم ، مما أدى إلى انسحاب كثائب السلف واحدة في أثر الأخرى ، وخوضوا من الفرسان الآفار ، انطلق السلف ثارين ، وانتقلت عدوی الفرار إلى البحارة السلف الذين كانوا مختبئين في الجبال ، فأخذ الفرسان الآفار في مطاردتهم ، علي حين أخذ المشاة في إخلاء أماكنهم تحت أسوار القسطنطينية . وأصدر الماجستر بونوس أوامرہ إلى كل الجنود البيزنطيين الذين كانوا خارج أسوار العاصمة أن يدخلوا إليها ، وأخذ الجميع يحتفلون بهذا النصر العظيم ، سواء في الكنائس أو المنازل أو الشوارع ، وخرج الماجستر بونوس والبطريک سيرجيوس في يوم ٨ أغسطس إلى خارج أسوار العاصمة واشرقا على حرق جميع آلات الحرب التي تركها

(١) يوجد وصف تصصيلي لهذه المعركة في المصادرين التاليين :

Theodore Syncellus , PP. 12 - 40 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium , PP. 6 - 24 .

المعتلون تحت الأسوار (١) .

أما القائد الفارسي شهر براز وجيشه ، فقد استمروا معسكرين أمام خلقيدونية ، وقال ثيودور سينكيلوس أنهم استمروا أمامها (أيامًا عديدة) (٢) بعد رفع الأثار الحصار عن القسطنطينية ، على حين ذكر ثيفانيس وسكيليتنيس أن شهر براز " قضى فصل الشتاء " (٣) أمامها ، والغالب أن شهر براز انسحب من أمام خلقيدونية في فصل الربيع من عام ٦٢٧ م. (٤) .

والملاحظ أن شهر براز لم يكن له دور كبير في حصار القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. ، إذ لم يشترك في هذا الحصار لا بالرجال ولا بالآلات ولا بالاسطول ، والأرجح أنه أراد من وصوله أمام خلقيدونية أن يشن حركة هجوم هرقل علي أرمينية، ويظهر للبيزنطيين أن ما أحرزه هرقل من انتصارات علي الفرس لم يكن لها قيمة كبيرة ، بدليل وصول الفرس إلي خلقيدونية المواجهة للعاصمة البيزنطية وربما أراد أن يجبر هرقل علي العودة لإنقاذ عاصمته ، والدفاع عنها ضد الأعداء ، وبذلك تناح الفرس فرصة استعادة مراكزهم في الأقاليم التي انتزعها منهم . لكن هرقل كان بعيد النظر فصمد في ميدان المعركة في الشرق ، وأثر عدم العودة إلي العاصمة ، فلقد على الفرس خططهم ، وهكذا لم يحقق الفرس أية مكاسب من وراء هذا التحالف الفارسي الآفاري .

(1) Theodore Syncellus , PP. 7 - 37 .

(2) Theodore Syncellus , PP. 17 - 22 .

Manjilovic : Le peuple de constantinople , dans (Byzantion) tome II , 1936 ,
P. 632 .

(3) Theophanes : P. 316 .

Skylitzes : Excerpta Exbreviaro Historiae , webri , Bonnae , 1840 , P. 729 .

(4) Barisić : Op. cit , P. 390 .

هذا عن الفرس ، أما الآفار ، فقد كانت خسائرهم فادحة ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا أن فشل الآفار في حصار القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. كان نقطة تحول خطيرة في وضعهم السياسي والعربي ، على النحو الذي يتضح من خلال عرضنا التالي للحوادث .

ذلك أن العاصمة البيزنطية بما لها من موقع ممتاز على مضيق البسفور ، وبما تملكه من ثراء ورخاء ، جذبت الآفار إليها وبهرت أنظارهم منذ أمد بعيد ، وبعد تجربة لهم فاشلة في عام ٦١٧ م. للاستيلاء على المدينة عنوة ، لم يقنعوا لا بالأموال ولا بالهدايا التي قدمت لهم مع هدنة عام ٦١٩ م. ، وأصرّوا على الاستيلاء على العاصمة نفسها ، وقاموا بمحاولتهم هذه في عام ٦٢٦ م. وكانت الظروف مهيأة لهم تماماً في ذلك الوقت ، فالتحققت كان مناسباً نظراً لأنشغال الإمبراطور هرقل بحربه ضد الفرس ، وكان بعيداً عن عاصمته هو ومعظم فرقه العسكرية ، كما أن الاستعدادات العسكرية كانت أيضاً في صالح الآفار ، إذ وصل جيشهم إلى نحو ثمانين ألف مقاتل ، وهو عدد يفوق ثلاثة أو أربع مرات عدد المدافعين عن العاصمة البيزنطية ، كما أنهم أتوا بالآلات حصار كافية ، وتتباهوا إلى ضرورة حصار المدينة براً وبحراً ، حتى لا تستفيد من أية إمدادات عسكرية أو تموينية يمكن أن تصل إليها ورغم ذلك كله فشل الحصار ، وليس هناك من تعليل لذلك سوى أن الآفار ورعاياهم من البلغار والجيبيدي والسلاف وغيرهم من القبائل كانوا يفتقرن إلى النظام ، كما أن بعض هذه العناصر أخذت تقاتل بعضها البعض أمام العاصمة البيزنطية مثل السيكتيين الذين أخنوا في قتل السلاف ، ثم تغلب عليهم السلاف بعد ذلك

(1) Pisidia : Bellum Avaricum , PP. 78 - 81 .

Barisié : Op. cit , P. 395 .

وقتلوهم^(١) . وقد حالت هذه المذابح المتبادلة بين هذه العناصر وبين تحقيق أهداف الحرب التي جاؤها . وذلك على عكس الحال بالنسبة للبيزنطيين ، الذين تكادفت فئاتهم ، والتقوا حول قادتهم من أجل هدف معين ، وخاضوا معركة كانت بالنسبة لهم معركة حياة أو موت ، فاما الانتصار علي هذه القبائل ، والاحتفاظ بعاصمتهم ، واما يفرون كل شئ ويصبحون عبيدا لهؤلاء البرابرة . أضف إلى ذلك أنهم كانوا يدافعون عن عاصمتهم وفقا لخطط وتدابير مدروسة ومنظمة ، اشتراك في وضعها الامبراطور هرقل نفسه ، والماجستر بونوس ، كما قام الاسطول البيزنطي بدور هام في الدفاع عن العاصمة وألحق الدمار باسطول السلف في مياه القرن الذهبي . كما قامت الكنيسة أيضا ممثلة في البطريرك سيرجيوس ورجال الدين بدور رئيسي في تقوية عزائم الشعب وبيث الحماس في النفوس للدفاع عن العاصمة . وهكذا قدر للحضارة أن تنتصر على البربرية ، وقدر لبيزنطة أن تتجو من مصير مظلم .

وقد ترتب على فشل الآفار أمام القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. نتائج على جانب كبير من الأهمية والخطورة . فقد أخذت قوتهم في التداعي وتخلوا وبصفة نهائية عن حلمهم في فتح العاصمة البيزنطية ، فتراجعوا إلى أقليم بانيا مذكورون ، ولم يجرقا بعد ذلك على الاقتراب من القسطنطينية .

كذلك انهار نفوذهم وفقدوا هيبيتهم بين رعاياهم المغلوبين على أمرهم ، وأخذت هذه الشعوب في التعدد وخليع طاعتهم ، ولا سيما سلاف مورافيا ، الذين ثاروا ضد الآفار وأسسوا لأنفسهم مملكة تحت حكم سامو^(١) ، وهكذا ظهرت للوجود .

(١) سامو هو أحد التجار الفرنجة تولى زعامة السلاف وحكمهم لمدة ٣٥ عاما ، راجع :

Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , dans (Byzantion) tome , XVII , 1944 - 1945 , P. 112 .

أول بوله مقلبية في مورافيا^(١).

كما ثارت عليهم أيضا القبائل البلغارية التي كانت تسكن شمالي البحر الأسود ويحر الخزر ، وسلموا قياداتهم إلى زعيم منهم يدعى كوفرات Kouvrat ، وساعد البيزنطيين كوفرات في نضاله ضد الأفاري ، وعقد معه الامبراطور هرقل تحالفًا ومنحه لقب قائد بيزنطي ، وعمده عضوا في الكنيسة النصرانية ، وظل البلغار في صراعهم مع الأفاري حتى استقلا عنهم في النهاية حوالي عام 640 م.^(٢).

ومن الشعوب التي استقلت أيضا عن الأفاري بعد هزيمتهم عام 626 م. الكروات^(٣) والصرب ، الذين كان موطنهم الأصلي وراء جبال الكريات ثم هاجروا

(1) Dvornik : The Slavs , Their early History and civilization , Boston , 1956 , American Academy of Arts and Sciences , PP. 60 - 61 .

(2) Nicephori Patriarchae : P. 24 .

Theophanes : P. 357 .

Gregoire : L'origin , PP. 112 - 118 .

Runciman : A History of the First Bulgarian Empire , PP. 13 - 16 .

موس : ميلاد العصور الوسطى ، من ٢٩٧ .

(3) يذكر الامبراطور قسطنطين السابع أن كلمة كروات Croats تعني في اللغة السلافية (الذين يحتلون الكثير من الأراضي) راجع :

Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Imperio , Chapter 31 .

ويذكر المؤرخ الفرنسي هنري جريجوار أن الكروات والصرب اسمان لشعب واحد ، فقد اتخذ الكروات اسمهم من اسم قائدتهم واسمه كروات Croate ، واتخذ الصرب اسمهم من اسم قائدتهم ويدعى صرب Serbe ، راجع :

Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , P. 100 .

إلى شبه جزيرة البلقان ، وأخضعهم الأفوار لسيادتهم ، وعند الامبراطور هرقل إلى أن يضرب بهم الأفوار عقب هزيمتهم عام ٦٣٦ م. ، فحرضهم على قتالهم ، وتغلبوا عليهم ، فسمح لهم الامبراطور هرقل بالاستقرار في شبه جزيرة البلقان ، حيث سكن الكروات في المناطق الشمالية الغربية من البلقان ، وسكن الصرب في المناطق الجنوبية الشرقية ، واعترفوا جميعاً بسيادة البيزنطية^(١).

وتجدر الإشارة إلى أن الامبراطور هرقل لم يدع الكروات والصرب لسكن البلقان ، لكنهم هم الذين كسبوا باللورة أراضيهم داخل حدود الامبراطورية ، وكل ما فعله هرقل أنه اعترف بهم وأضفي الصفة الشرعية على وضعهم كتابعين للامبراطورية ، وأخذ على عاتقه تعليمهم استيعاب الحضارة البيزنطية واعتناق الديانة المسيحية . والواقع أن السيادة البيزنطية على هؤلاء السلاف لم تكن إلا سيادة قاسمية ، وكل ما جنته بيزنطة من هذه التغييرات في البلقان ، هو الخلاص من غارات الأفوار المتكررة على أراضيها وطمئنهم في امتلاك العاصمة البيزنطية ذاتها ، وهو الأمر الذي سبب قلقاً دائماً لهرقل حتى تمكن في النهاية من القضاء عليه .

وإذا كان الامبراطور هرقل قد نجح في ابعاد خطر الأفوار عن إمبراطوريته وشجع رعاياهم على خلع ملأعتهم مما أدى إلى انحسار إمبراطوريتهم اقتصارها على إقليم بانونيا ، الا أن الفضل يرجع للإمبراطور شارلمان (٨١٤ - ٧٦٨) في القضاء على الأفوار بصفة نهائية .

فقد اهتم شارلمان بعد نفوذه إلى بافاريا في الجنوب الشرقي من دولته ،

(١) بخصوص الكروات والصرب وعلاقتهم بالأفوار وبيزنطة راجع :

Constantine Porphyrogenetus : Op. cit , Chaptes 29 - 36 .

Cregoire : L'origine , PP. 101 - 103 .

وأذعن له الباباريين في البداية على أساس الاعتراف بسيادته عليهم ، وتحويل مملكتهم إلى دوقية تحظى بنوع من الاستقلال الذاتي سياسياً وكتسياً . على أن خروج ملك الباباريين عن الطاعة واعلانه العصيان في ٧٨٨ م. وطلبه المساعدة من جيرانه الآفار في بانونيا ، كل ذلك دفع شارلمان إلى المبادرة بخلعه ونقله إلى أحد الأديرة ، واجباره على التنازل عن كل حقوقه وحقوق أسرته في بافاريا وادخالها في دائرة أملاك الفرنجة ^(١) .

وهكذا تم خصم بافاريا إلى أملاك شارلمان مما جعله في مواجهة مباشرة مع الآفار ، وقد بادرت جيوش شارلمان باتخاذ خطوة الهجوم ، وتقدم إريك دوق فريولي Eric Duke of Friuli على نهر الدانوب ، فاقتصرت الحلة الكبيرة التي أقامها الآفار من متاريس ترابية مستديدة تخلف المعلم الرئيسي لهم ، ثم توالت بعد ذلك الحملات على الآفار حتى بلغ عددها ثمان حملات على مدى خمسة عشر عاماً من ٧٩١ - ٨٠٥ م. ، قاد منها شارلمان نفسه حملة واحدة فقط في عام ٧٩١ م. بينما قاد ابنه بيبن Pepin باقي الحملات ، وكان بين يحكم اللومبارديين في إيطاليا بعد انتصار شارلمان عليهم ، ويقول إينهارد Einhard مؤرخ عصر شارلمان ، انه خلال هذه المعارك سالت دماء الآفار كالنهر ، حتى أن جميع نبلائهم قتلوا ، وخررت قصورهم وديارهم في بانونيا ولم يعد أحد من الآفار يعيش هناك ^(٢) .

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

محمد الشيش : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ص ٢٥٧ .

(2) Einhard and Notk the Stammerer , Two lives of Charlemagne , P. 67.

The Royal Annals , in " The Reign of Charlemagne " Documents on carolingian , Government and Administration , by H. R. loyn and Percival , 1975 , PP. 38 - 39 .

كما استولى الفرنجة على كنوز هائلة من الذهب والفضة والمنسوجات الفاخرة والأواني النقيضة ، وكلها من الفنانين التي غنمها الآفار علي مدى أجيال متعاقبة . والمرجح أن معظمها كانوا قد نهبوه من مدن الامبراطورية البيزنطية وأدیرتها وكنائسها التي طالما تعرضت للنهب من جانب الآفار . ويقول المؤرخ فيشر أن الأسلاب التي غنمها الفرنجة من الآفار ، قد اسهمت في رفع شارلمان من حالة الغنى والثروة إلى حالة الثراء الفاحش والثروة الوفيرة ^(١) .

وهكذا تم لشارلمان القضاء علي الآفار ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، واختفتوا من مسرح الحوادث التاريخية ، وتحولوا إلى سطور في كتب التاريخ .

تلك كانت سيرة شعب من الشعوب الآسيوية والقبائل الهمجية التي غادرت موطنها جريا وراء الفنانم والأسلاب ، وطمعا في الامبراطورية البيزنطية التي كانت تمثل قمة الثراء والحضارة في نظر هذه الشعوب ، وفي رحلتهم علي مدى ما يزيد على القرنين من الزمان ، منذ اتصالهم بالامبراطورية البيزنطية في العقد السادس من القرن السادس الميلادي ، وحتى قضاء شارلمان عليهم في أوائل القرن التاسع الميلادي ، روع الآفار سكان المنطقة التي مرروا بها أو تلك التي استقروا فيها ، وقاموا بدور يماثل الدور الذي قام به أسلافهم الهون ، وظل الآفار حتى النهاية علي وثنيتهم ، ولم يكن اتصالهم بالامبراطورية البيزنطية من أجل الثقافة أو التهذيب ، أو تنوع الحضارة ، أو التأثير بالديانة المسيحية ، علي عكس الشعوب والعناصر الأخرى التي أغارت علي الامبراطورية ، ثم تأثرت بحضارتها واعتنقت ديانتها المسيحية ومذهبها الارثوذكسي ، كالقوط الشرقيين ، والروس ، والبلغار ، والكرؤات والصرب

(١) فيشر : أوروبا العصور الوسطي ، ج ١ ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، ص ٩٤ .

وغيرهم ، في الوقت الذي ظل فيه الأفار وحثي النهاية ، عناصر همجية مدفأة السلب والنهب واغتصاب الأرض واخضاع الشعوب التي ساقها حظها التعم للوقوع في طريقهم .

ورغم التخريب والنهب والسلب والتدمير الذي مارسوه في الأماكن التي حلوا بها ، من بحر البلطيق إلى شبه الجزيرة المور ، الا أنهم أثروا في مجريات الأمور في تلك المناطق بل وأمتد أثر هذا التغيير إلى منطقة البلقان حتى العصور الحديثة .

فقد استبعد الأفار شعوبها كثيرة ، وضغطوا على شعوب أخرى ، مما دفعها إلى ترك أماكن استقرارها والهجرة إلى مناطق أخرى ، مثلاً حدث مع اللومبارديين الذين تركوا مقرهم على نهر الدانوب ، تحت ضغط الأفار وما جروا إلى شمال إيطاليا . كذلك ما حدث مع الأهالي من اليونان والرومان في شبه جزيرة البلقان ، والذين اختلف المؤرخون حول ما حدث لهم من جراء هذه الغارات المدمرة ، فهناك رأي يقول أن العنصر اليوناني أُبيد تماماً في المناطق التي تعرضت لغزو الأفار والسلاف خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع ، ومن هذا الفريق ، المؤرخ أزيبيور أسقف أشبيلية ، الذي سبق عرض رأيه في ثانياً هذا البحث ، وهناك أيضاً العالم الألماني الكبير الاستاذ فلمرير Fallmerayer ، الذي كان استاذاً للتاريخ العام بالجامعات الألمانية ، والذي عرض رأيه بهذا الشأن في كتابه عن " تاريخ شبه جزيرة المور في العصور الوسطى " ونشر في مدينة شتوتجارت الألمانية في عام ١٨٣٠ م. اذ قال الاستاذ فلمرير ، ان ظهور الأفار في أوروبا كان عهد جديد في التاريخ اليوناني ، لأن الأفار دفعوا أمامهم السلاف وقاتلهم لفتح بلاد اليونان ، وأضاف قائلاً : " لقد أُبيد العنصر اليوناني تماماً في أوروبا ، واحتفي جمال الجسد ، وسمو الروح ، ويساطة التقاليد ، والإبداع الفني ،

ونقاء العنصر ، وعظمة المدن ، وهدوء القرى ، وفخامة الأعمدة والمعابد ، وحتى أسماء الناس خفت من البلاد اليونانية ، وغطت قبور اليونان القدامى ، طبقتان من مخلفات الخراب والأحوال ، التي أحدثها عنصران مختلفان جديدين ^(١) . وتتمثل بعض الأعمال الخالدة ، التي تتميز بروح الهللينية وببعض الآثار القديمة على الأرض اليونانية ، الدليل الوحيد على الحقيقة الساطعة ، بأن ثمة شعبا هللينيا كان يعيش على هذه الأرض منذ زمن بعيد ... ولقد انتشر هذا الاعصار المرهون فيما بين الجزء الأدنى من نهر الدانوب ، وحتى أقصى ركن في البلوبيونيز ، لذلك فإنه لا توجد نقطة واحدة من الدم الهلليني النقي ، تجري في عروق السكان المسيحيين في بلاد اليونان الحديثة ^(٢) .

وهناك فريق آخر من المؤرخين يؤكد على أن العنصر اليوناني والحضارة الهللينية استمرت باقية ، وتمركزت في مناطق السواحل المطلة على البحر الایجي كما تمركز الرومان على السواحل المطلة على البحر الادرياتي ، ومن هذا الفريق المؤرخين، نورمان بيتنز ^(٣) ، لمرل ^(٤) Lemerle ، استروجورسكي ، ومورن.

وعلي سبيل المثال ، قال المؤرخ استروجورسكي ^(٥) : " انه رغم خصوص البلوبيونيز للغزو السلافي لأكثر من قرنين من الزمان ، الا أن الأقاليم اليونانية لم تصبِّغ بالصبغة الصقلية ، اذ حرصت السلطات البيزنطية على المحافظة على

(١) المقصود بهذين العنصرين الجديدين ، الآفار والسلاف .

(2) Fallmerayer J. P. : Geschichte der Hallinsel Morea Wahrend des Mittelalters , Stuttgart , 1830 , vol I , PP. III - XIV .

(3) Baynes : Op. cit , P. 296 .

(4) Lemerle : Invasions et migration des les Balkans , PP. 303 ff .

(5) O Strogorsky : Op. cit , P. 94 .

الطابع اليوناني بهذه الجهات وبذلك استعاد العنصر اليوناني قوته مرة أخرى وبطريقة تدريجية ، وساد على السواحل الجنوبية والشرقية كما أكد العنصر الروماني وجوده على السواحل الغربية .

وقال المؤرخ موصى^(١) : انه رغم غزوات الأفاري والسلاف للبلقان إلا أن السواحل المطلة على البحر الایجي وشبه جزيرة البلوبونيز ظلت مراكز للحضارة والحياة الهللينية ، كما أن الرومان الذين فروا إلى الجزر والخلجان الادرياتية أقاموا حافة منعزلة من اللاتينية ، ظلت قائمة حتى العصور الحديثة ، وقد مات آخر ناطق باللغة اللاتينية في ١٨٩٨ م. ولم تكن لغته إلا سلالة من اللسان الروماني القديم .

وهكذا نجد رأيين مختلفين تمام الاختلاف ، فالرأي الأول يقول أن العنصر اليوناني أبيد تماماً ولم يبق له أثر نتيجة لغزوات الأفاري والسلاف . والرأي الثاني يؤكّد على أن العنصر اليوناني والحضارة الهللينية استمرت باقية ولم تنتشر . والأرجح أن الرأي الثاني هو الأصح لأنه منذ حل الأفاري بمنطقة البلقان في العقد السادس من القرن السادس الميلادي ، استعمرها سكان هذه المنطقة من مختلف العناصر ، وخاصة السلاف وانتطلق اعمصار الأفاري يعصف بموجات تتبع السلاف ويحيطها إلى تيارات عنيفة ، بما أضافه لهذه القبائل من قوة دافعة ، وبما حرصوا عليه من انتشار في جميع أركان شبه جزيرة البلقان وببلاد اليونان وقد أدى ذلك إلى احتلال دائم من السلاف لمناطق اياليريا ، داماشيا ، مقونيا ، وتراتقيا ، والغالب ان هذه هي الفترة التي تم فيها صياغة المناطق الداخلية في شبه جزيرة البلقان بالصيغة الصقلية ، وما ترتب على ذلك من فصل روما القديمة عن روما الجديدة

(١) موصى : ميلاد العصور الوسطى ، ص من ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(القسطنطينية) ، بعد أن وجدت كتلة من العناصر الصقلبية في شبه جزيرة البلقان . ورغم الجهود العسكرية لبيزنطة لرد اعتداءات الآفار والسلاف إلا أن الإمبراطورية لم تعد تستطيع السيطرة على حدودها في منطقة الدانوب بعد عام ٦٠٤ م. كما سبق أن أوضحنا .

وفي وسط الفوضى التي عمت هذه المنطقة ، بدأت تظهر مستوطنات جديدة في بلاد البلقان ، تلك المستوطنات التي كانت نواة الأمم الصقلبية الحالية ، أما السكان الأصليين من اليونان والروماني ، فقد دفعوا أمام خطف الآفار والسلاف إلى حافتي شبه جزيرة البلقان المطلتين على البحر الادرياتي حيث استقر الرومان ، والبحر الایجي ، حيث استقر اليونان واستمرت الهلنلية داخل هذه الأرضي بنفس مستواها الطبيعي في اللغة والشخصية ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك في ثانياً البحث .

لذلك فإن المقوله التي رددها الاستاذ فلمير ، ومن قبله ازيور أسقف أشبيلية وملخصها أن الشعب اليوناني أبيد في المناطق التي تعرضت لغزو الآفار في البلقان وببلاد اليونان ، هي في واقع الأمر مقوله مبالغ فيها .

وإذا كان هذا ما أحدثه ظهور الآفار في منطقة البلقان ، فإن اضمحلال قوتهم وانهيار نفوذهم كان له أيضاً آثار بعيدة المدى ، وكانت بداية هذا الأضحملال هو فشلهم في الاستيلاء على العاصمة البيزنطية في عام ١٢٦م ، وتمرد شعوب كثيرة عليهم وخرجها عن طاعتهم ، واستمر اضمحلالهم حتى تم في النهاية تدمير قوتهم علي يد شارلزان في أوائل القرن التاسع الميلادي . وقد ترتب علي ذلك أن أصبح الطريق مفتوحاً أمام عنصر

الفيكتنج^(١) ، للوصول إلى حوض نهر الدنديبر وسواحل البحر الأسود ، فقد دأبوا سواء أكانتوا قراصنة أم تجارا على الاغارة على مناطق الصناعية على شواطئ بحر البلطيق ، وأقاموا بهذه الشواطئ معاقل دائمة لهم ، واستطاعوا أن يضعوا أيديهم رويدا رويدا على طريق التجارة العظيم ، الذي يتتألف من شبكة الطرق المائية التي تربط بين بحيرة لابوجا والبحر الأسود ، ثم توغلوا جنوبا وأسسوا بوقية كيف التي أصبحت نواة الامبراطورية الروسية فيما بعد^(٢) .

وتشمل انهيار قمة الأنفار مجموعة الشعوب السلافية أيضا ، التي انحسر مدها غربا ، وارتدى من أعلى التنسا لتزلف تلك البلاد اذ ذاك جزء من امبراطورية شارللان ، وشرع مستوطنو من جرمانيا بافاريا يستقرون فيها ، ويستقرن أيضا في الجزء الغربي من المجر ، التي أصبحت مناطقها الشرقية بصفة خاصة جزءا من امبراطورية شارللان ، وبين تلك عاد إلى الوجود خط حدود باتونيا الذي كان معروفا عند الرومان .

وهكذا امتد تيار النفوذ الفرنجي امتدادا حتىثا حاملا معه سمات الحضارة

(١) الفيكتنج هم العناصر الشمالية (سويديون ، نرويجيون ، ودانيون وهم سكان الدانمرك) التي سكنت شبه جزيرة سكتلنديا وشبه جزيرة الدانمرك ، وهي يتبعون من الناحية المنصرية إلى الأصل القيتووني أو الجرماني . واسم الفيكتنج يعني سكان القبور أو الخلجان وهي الظاهرة الطبيعية التي امتازت بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا .

وعن كل ما يتعلق بالفيكتنج وتاريخهم وحضارتهم ونشاطهم الحربي في العصور الوسطى
راجع :

سعید عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٢ ، ص من ٢١٨ - ٢٤٧ .

(٢) محمد الشیخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ص من ٣٠٦ - ٣٠٧ .
مروض : ميلاد العصور الوسطى ، ص ٢٩٨ .

المسيحية اللاتينية شرقا ، صوب الأرضي التي هي الان ، النمسا وبولندا وبوليفيا وال مجر ، بعد أن ثم القضاء على العقبة التي وقفت أمام امتداده لهذه المناطق ، والتي تمثلت في شعب الآفار .

المصادر والمراجع

- 1 - Alexander P. : The Patriarch Nicephorus of Constatinople ,
1985 .
- 2 - Barisié F. : Le Siège de Constantinople par les Avores et les
Slaves en 626 . dans (Byzantion) Revue
international des Etudes Byzantines , tome XXIV ,
Bruxelles , 1954 .
- 3 - Barker : Justinian and the later Roman Empire , London , 1966.
- 4 - Baynes N. : The Successors of Justinian , in C. Med. H. vol II,
ed. Bury, Cambridge , 1976 .
- 5 - Beisker : The Expansion of the Slavs , C. Med. H. Vol II, ed.
Bury , Cambridge , 1976 .
- 6 - Brehier L. : Vie et mort de Byzance , Paris , 1969 .
- 7 - Bury Y. B. : A History of the Eastern Roman Empire , London ,
1912 .
: A History of the later Roman Empire , U. S. A. ,
1958 .
- 8 - Chabot : La Chronique de Michel le Syrien , Paris , 1899 -
1904.
- 9 - Charanis P. : Hellas in The Greek Sources of Six th , Seventh ,

and Eighte centuries , in late classical , and Medieval
studies , in Honor of Albert Mathias Friend ,
Princeton University press , 1953 .

10 - Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Imperio , ed.
Bonnae , C. S. H. B. .

11 - Deihl et Marçais : Le monde oreintal de 395 a 1081 , Paris ,
1936 .

12 - Dunlop : The History of the Jewish Khazars , U. S. A. 1967 .

13 - Dvornik : The Slavs , their early History and civilization ,
Boston , 1956 .

14 - Einhard and Notker the Stammerer Two lives of charlemagne ,
translated by thorp. Great Britain , 1969 .

15 - Encyclopedia Britannica , William Benton Publisher , U. S. A.,
1968 .

16 - Evagrius : Historia Ecclesastica , ed. Bidez and Parmentier ,
London , 1898 .

17 - Fallmerayer Y. P. : Geschichte der Hallinsel Morea wahrend
des Mittelalters , Stuttgart , 1830 .

18 - Fontaine Y. : Isidore de Seville et la culture classique dans
l'espagne wisigothique , Paris , 1959 .

19 - Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire , London ,
1976 .

-
- 20 - Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , dans
(Byzantion) tome XVII , Bruxelle , 1944 - 1945 .
- 21 - Halphen L. ed. , Eginhard , la vie de charlemagne , Paris ,
1923 .
- 22 - Hartmann : Italy under the Lombards , in C. Med. H. Vol II ,
ed. , Bury , 1976 .
- 23 - Hauptmann : Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les
Avers Pendant la second moitié de vi ^e Siècle , dans
(byzantion) tome IV , 1927 - 1928 .
- 24 - Haussing : A History of Byzantine Civilization , trans . from
the German by Hussey , London , 1971 .
- 25 - Hoyet and Shodorow : Europe in the Middle Ages , Third
Edition , U. S. A. , 1976 .
- 26 - Hussey Y. : The Byzantine World , London , 1955 .
- 27 - Johannis Biclaensis : Chronica , Chronica Minora , ed. by Th.
Mommsen , Berlin , 1894 .
- 28 - John of Ephesus : Elcelesiastical History , translated from
Syriac by Payne - Smith , Oxford , 1860 .
- 29 - The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , ed.
Grabois , U. S. A. , 1980 .
- 30 - Isidore of Seville : Chronica Maiora , Patrologia Latina ,
LXXXIII .
-

-
- 31 - Lemerle : Invasions et Migration des Balkans , depuis
L'époque Romaine Jusqu'au VIII^e Siècle , Revue
Historique , vol CCXI , 1954 .
- 32 - Lot : The End of the Ancient world and the Beginnings of the
Middle Ages , London , 1931 .
- 33 - Manojlovic : Le peuple de Constantinople , dans (Byzantion) ,
tome II , Bruxelles , 1936 .
- 34 - Menander : Agathias Continuatus , fragments , in Historici
Graeci Minores , edited by L. Dindorf , Leipzig ,
1871 .
- 35 - Moss : The Formation of the East Roman Empire (330 717) in
C. Med. H. vol IV , part I , ed. Hussey , Cambridge,
1966 .
: The Birth of the Middle Ages , Oxford , 1947 .
- 36 - Nicephori Patriarchae : Berviarium , ed. De Boor , Leipzig
1880 .
- 37 - Obolensky D. : The Empire and its Northern Neighbours (565
- 1018) , in C. Med. H. , vol IV part I , ed . Hussey
, Cambridge , 1966 .
- 38 - O'Callaghan Y. F. : A History of Medieval Spain , 1975 .
- 39 - Oman : The Dark Ages , London , 1908 .
- 40 - Ostrogorsky G. : History of the Byzantine State , English
-

-
- Trans. by Hussey , Oxford , 1968 .
- 41 - Painter S. : A History of the Middle Ages , 284 - 1500 ,
London , 1979 .
- 42 - Paul the Deacon : History of the Lombards , trans. from latin by
Foulke , ed. by peters , Penselvania press , 1974 .
- 43 - Pisidia : De expeditione Persica ,
: Bellum Avaricum .
: Heraclias .
ed. Bekker , C. S. H. B. , Bonnae , 1838 - 1839 .
- 44 - Rambaud A. : Etudes Sur L'histoire Byzantine , Paris , P.
1912.
- 45 - The Royal Annals , in (The Reign of Charlemagne)
Ducuments on Carolingian Government and
Administration , by H. R. loyn and Yohn Percival ,
1975 .
- 46 - Runciman S. : The Byzantine Civilization . Seventh Impression
, Great Britain , 1975 .
- 47 - Simocatta Th. : Historiae , ed , by De Bor , Leipzig , 1887 .
- 48 - Skylitzes G. : Excerpta Exbreviario Historiae , webri C. S. H.
B. , Bonne , 1840 .
- 49 - Syncellus Th. , ed Sternbach , Analecta Avarica , Seorsum
-

Impressum ex tomo XXX , Dissertationum
Philologicarum , 1900 .

50 - Theophaves : Chronographia , ed. de Boor , 2 vols , Leipzig ,
1883 - 85 .

51 - Toynbee A. : Constantine Porphyrogenitus and his world ,
London , 1973 .

52 - Vasiliev : History of the Byzantine Empire (324 - 11453) , 2
. vols , wisconsin press , U. S. A.

شارل دانجو
وسياسته في الصقلبيين

دكتورة
إسمة خنيم

١٩٩٢

الْقَدْمَةُ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمتاز بعض الحقب التاريخية بظهور شخصيات تلمع في عصرها بما تنفرد به من صفات تؤهلها للقيادة ولما تقوم به من أعمال تبهر بها معاصرتها . وبعض هذه الشخصيات تحقق أعمالاً هامة ذات قيمة تخلد إسمها على مر العصور ، وبعض الشخصيات التاريخية لا تترك وراءها سوى الخراب والدمار وأسوا الذكريات لدى رعاياها ، ويسجل التاريخ ذلك أيضاً .

ومن الفريق الثاني شخصية بارزة ، استحوذت على اهتمام المعاصرين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي شخصية شارل دانجو Charles D'Anjou ملك فرنسا لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) ، ولقد صور المؤرخون شارل دانجو بصورة قائمة السواد ووصفوه بأنه كان شريراً ماكرًا ناكلاً للعبود ، وعلى استعداد أن يغرق في الدماء من بيدي أقل مقاومة لحكمه ^(١) . وإن كان من رأي المؤرخ فازيليف أن حكمهم هذا غير عادل ^(٢) ، إلا أنه من خلال عرضنا لشخصية شارل دانجو وسياساته في الصقلتين ، يظهر بوضوح أن هؤلاء المؤرخين لم يتبعوا على شارل فشجاعته التي تصل إلى حد التهور ، وطموحه الشديد الذي لم يكن يقف عند حد ، وثقته الزائدة في ذاته وقراراته ، واعتداده بأصله الفرنسي ، كل ذلك دفعه إلى الشهرة والمجد ، لكنه ما لبث أن هوي به إلى أحضان الفشل والدمار ، بعد أن أساء معاملة رعاياه في صقلية وإيطاليا ، وامتلس مواردهم ، وأغرقهم في بحر من الدماء ،

(1) Jordan E : Les Origines de la Domination Angevine en Italie , Paris , 1909,
PP. 410 - 415 .

(2) Vasiliev A : History of the Byzantine Empire , 324 - 1453 , U. S. A. , 1971,
vol 11 , P. 592 .

حتى أصبح مكروراً بغيضاً، وتمنوا الخلاص منه ومن العنصر الفرنسي الذي اعتمد عليه شارل في الحكم. وقد أثمر ذلك كلّه في النهاية وأدي إلى إنفجار ثوري رهيب في صقلية في ٢٩ مارس ١٢٨٢ م، أطاح بحكم شارل دانجو وقضى على آماله وطموحه في غزو العالم بأسره.

والمقصود بـ*الصقليتين* The two Sicilies جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، اللتين تم توحيدها على يد روجر الثاني النورماني ، الذي اتّخذ لقب ملك في يوم رأس السنة عام ١١٣٠ م . (توفي عام ١١٥٤ م .) في عاصمته بالرمي. وقد آل عرش الصقليتين في عام ١١٩٤ م. إلى هنري السادس إمبراطور إمبراطورية المقدسة (١١٩٠ - ١١٩٧ م .) عن طريق زواجه في عام ١١٨٦ م . من كونستانتس النورمانية إبنة روجر الثاني وورثة عرش الصقليتين ، وانتقل ذلك العرش إلى ابنهما فردريك الثاني (١١٩٧ - ١٢٥٠ م) ثم إلى ابنائه من بعده ، حتى آل إلى شارل دانجو كما يتضح من خلال هذا البحث .

والمعروف أن شارل دانجو اشتراك في حملة لويس التاسع على مصر (١) (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م) ، لكن دوره في هذه الحملة كان دوراً ثانوياً كمساعد لشقيقه الملك لويس مثلاً فعل شقيقه الآخران روبرت كونت أرتوا ، والفوينس كونت بواتييه وكان شارل وقتذاك لا يزال شاباً صغيراً في الحادية والعشرين من عمره ، كذلك

(١) بخصوص حملة لويس التاسع على مصر راجع :

جوزيف نسيم يوسف : العوان الصليبي على مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسکور ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٩ .

راجع كذلك :

جوانغيل : القديس لويس وحملاته على مصر والشام ، ترجمة وتعليق الاستاذ الدكتور / حسن حبشي ، الطبعة الأولى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .

شارك شارل بدور محدود في حملة لويس التاسع على تونس في عام ١٢٧٠ م^(١).
ولم يصل إلى تونس إلا بعد وفاة شقيقه الملك لويس.

وتتجدر الإشارة إلى أن المسلمين في جنوب إيطاليا وعلى الأخص في مدينة لوسيرا (لوتشيرا) ، كان لهم دور هام في الثورات التي قامت ضد حكم شارل دانجو في إيطاليا ، وهذه المدينة من المدن الرومانية القديمة ، لكنها دمرت على يد اللومبارديين في عام ٦٦٣ م . وأعاد بناؤها من جديد الامبراطور فرديريك الثاني في ١٢٣٣ م . وشجع المسلمين على الاقامة بها . والمعروف أن الامبراطور فرديريك الثاني كان يظهر المودة للمسلمين ، فقد تربى بينهم في صقلية وتشبع بحضارتهم وقيل أنه كان يتحدث اللغة العربية ، ويتنوق بالشعر العربي ، وأحاط نفسه بمستشارين من المسلمين استخدم بعضهم في الجيش وقربهم إليه وجعل بعضهم في حاشيته ، وتحطمت هذه العلاقات حدود صقلية وجنوب إيطاليا إلى بلاد الشرق الإسلامي ، وكذلك بلاد المغرب فكان حكام تونس الحفصيين يدفعون له الجزية السنوية ، كما كانوا يدفعونها من قبل لوالده هنري السادس ، ولأبنائه الذين حكموا من بعده^(٢).

وقد كان المسلمين في لوسيرا مؤيدين تماماً لعائلة الهohenstaufen ، حتى ان

(١) عن حملة لويس التاسع على تونس ودور شارل فيها راجع : مصطفى الكتاني : حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ١٢٧٠ م / ٦٦٨ - ٦٦٩ م . الاسكتدرية ١٩٨٥ .

سامية عامر : حملة لويس التاسع الصليبية على تونس ، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية .

(٢) عن علاقات فرديريك وخلفائه بال المسلمين راجع :

ابن واصل : مفرج الكرب ، ج ٢ ، ورقة ٢٢٦ ب مخطوط ، ج ٢ ، ورقة ٢٥٢ ب مخطوط .

العيني : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢٠ - ٢٢٢ .

أنفريد لم يطمئن على زوجته هيلين أوف أبيروس ، وابنائه الا بين مسلمي لوسيرا ، فتركهم هناك وسار للقاء شارل دانجو في معركة بنفتون ١٢٦٦ م . بل ان جيشه في هذه المعركة كان يشتراك فيه كثائب من المسلمين . كذلك بذل مسلمو لوسيرا مساندتهم لتأييدهم لكونرادين هو من يستحق الذي قام بحملة عسكرية ضد ايطاليا لانتزاع حقه الشرعي في حكم الصقليتين ، وقد تمت الإشارة لذلك كله أثناء عرضنا للحوادث التاريخية الخاصة بهذا البحث .

والجدير بالذكر أنه كان للمصادر الإيطالية ، سواء المعاصر منها أو المتأخر زمنيا بعض الشئ ، وسواء كتبت باللغة اللاتينية أو اللغة الإيطالية أهمية خاصة بالنسبة لهذا البحث ، ومن أهم هذه المصادر كتابات جيوفاني فيلانني Giovanni Villani ، وبارتولوميو أوف نيكاسترو Bartholomew of Neocastro ، وسابا Marino Sanudo مالاسينا Saba Malaspina ، ومارينو سانيدو تورسيلاو Marino Torsello . كذلك كانت الفائدة كبيرة من المراجع الإيطالية ، وعلى رأسها كتاب المؤرخ الإيطالي الشهير ميشيل اماري Michel Amari عن (حرب صلاة المساء الصقلية) La Guerra del Vespro Siciliano .

وقد تمت الإشارة إلى هؤلاء المؤرخين وأعمالهم في ثنايا هذا البحث وحواشيه .

= ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٥ هـ .

أبن خلدون : العبر ، ج ٦ ، ص ٢٨٠ .

سعید عاشور : الامبراطور فردریک الثاني والشرق العربي ، بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الحادی عشر ، سنة ١٩٦٣ .

- Mas - Latrie L. : Traites de Paix et de Commerce et Documents divers Concernant les Relations des Chretiens avec les Arabes de L'Afrique Septantrionale au Moyen Ages , Paris , 1866 .
- Bryce : The Holy Roman Empire , New York , 1919 .
- Kantoromicz : Fredrick The Second , 1932 .
- Van Cleve : Thc Emperor Frederick II of Hohenslaufen , 1972 .



CHARLES OF ANJOU

شارل آنجو

شارل آنجو

شارل دانجو ، هو الإبن الأصغر للملك لويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٣ - ١٢٢٦ م) ، وبلانش صاحبة قشتاله . Blanche of Castile

ولد شارل في بداية عام ١٢٢٧ م . بعد شهور قليلة من وفاة والده لويس الثامن ، وكانت والدته بланش آنذاك في الثامنة والثلاثين من عمرها ، وقد جمع شارل في شخصه بين الأصول الفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، فوالدته هي حفيدة الملك العظيم هنري الثاني Henry II Plantagenet ملك إنجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩ م) وملكة فرنسا السابقة اليانور صاحبة أكتين Eleanor of Aquitaine التي تزوجها هنري الثاني في ١١٥٢ بعد ملاقتها من ملك فرنسا لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) . ووالدها هو ألفونسو الثامن النبيل Alfonso VIII The Noble عقد بين إنجلترا تحت حكم خالها هنا لاكلاند Jhon Lackland (١١٩٩ - ١٢١٦ م) وفرنسا تحت حكم فيليب الثاني (١١٨٠ - ١٢٢٢ م) وقد تلقت بланش تعليمها في البلاط الفرنسي ، وكانت امرأة فاضلة ذات شعور ريني قوي حاولت فرضه على أبنائها ، وحينما تولى لويس الثامن عرش فرنسا في ١٢٢٣ ، ابتعدت عن السياسة وشغلت نفسها بتربية ابنائها ، لكن يموت لويس الثامن المفاجئ في ١٢٢٦ ، أصبحت بланش وصية على أبنائها وحاكمة لفرنسا أثناء فترة قصور إبنتها الأكبر لويس (التاسع) ، الذي بلغ سن الرشد في عام ١٢٣٤ ، وتسلم حكم البلاد ، وقد استمر تقوتها على ابنها لويس أثناء فترة حكمه ، وكان لها دخل كبير في قراراته ، وفي عام ١٢٤٧ ، حينما سافر

لويس التاسع على رأس حملته الصليبية إلى الشرق ، عادت بلانش لحكم فرنسا مرة أخرى ، واستمرت القوة المهيمنة على فرنسا حتى وفاتها في عام ١٢٥٢ عن عمر يناهز الرابعة والستين^(١).

وهكذا عندما ولد شارل كانت والدته بلانش مشغولة تماماً في أعباء الحكم ومعارضة الشنون السياسية لفرنسا ، وعلى الرغم من ذلك أثبتت هذه السيدة كفاءة ومقدرة سياسية عظيمة ، وساعدتها على ذلك ما تعمت به من شخصية قيادية ونشاط وافر ، وولع بالسياسة ، فاستطاعت في بداية حكمها أن توشك سلطة التاج الفرنسي على النبلاء المعارضين ، وبذلت في سبيل ذلك الكثير من الجهد والوقت ، ربما بشكل حرمتها من بذل رعايتها واهتمامها الشخصي لإبنيها الأصغر شارل ، الذي يقال أنه ورث صفاتها الشخصية أكثر مما ورثه أبناءها الآخرين . فضلاً عن أن شارل لم يكن الأخ المفضل لدى شقيقه الملك لويس التاسع ، بل كان لويس يفضل روبرت كونت أرتوا أولاً ، ثم الفونسو كونت بواتييه بعده ، وكان شارل يعلم ذلك جيداً لذلك اعتمد شارل على نفسه وعمل على قدراته ، خاصة بعد أن نما واشتد عوده ، ويشير المؤرخون إلى أنه كان قد ورث عن أسلافه القشتاليين لونهم الداكن (الأسمر) ووفرة نشاطهم وقوتهم ، فكان جسده مليئاً بالصحة والنشاط مثله في ذلك مثل والدته ، وتلقى شارل تعليماً جيداً ، ولم يفت حماسه طيلة حياته للتعليم وميله للشعر ودراسة الفنون ، كما أخذ عن عائلته صفتى التقشف والصرامة ، فكان دائماً على استعداد للتخلص عن

(١) للمزيد عن بلانش صاحبة قشتالة راجع :

Berger E. : Histoire de Blanche de Castile reine de France , Paris , 1895 .

Wolff L. : Mortgage and Redemption of an Emperor's son : Castile and the latin Empire of Constantinople , PP. 47 - 69 .

متعته الشخصية للسعي وراء هدف أعظم ، لكن تقشهه كان يختلف عن تقشه الملك لويس التاسع ففيما كان تقشه لويis ينبع من تقوي حقيقة كان تقشه شارل دائماً وسيلة للوصول لأهدافه في السلطة والحكم ، وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه جندي الله المختار وأداته لحكم العالم بأسره^(١).

وفي يناير من عام ١٢٤٦ م . تزوج شارل من بياتريس Beatrix صاحبة بروفانس ، وهي الإبنة الصغرى لري蒙د الرابع برنجار صاحب بروفانس Raymond Brengar IV of Provance (توفي ١٢٤٥ م) ، وكان لريموند أربع بنات ولم ينجُ ولاداً ذكراً ، فتزوجت ابنته الكبرى مارجريت في عام ١٢٣٤ م . من الملك لويس التاسع ملك فرنسا شقيق شارل ، وتزوجت الإبنة الثانية وتدعى اليانور في عام ١٢٣٦ من الملك هنري الثالث ملك إنجلترا ، وتزوجت الإبنة الثالثة وتسمى Richard of Sanchia في عام ١٢٤٣ من ريتشارد صاحب كورنوال Cornwall ، الذي أصبح فيما بعد حاكماً على الإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٢٥٤ - ١٢٧٢ م) . أما ابنته الصغرى بياتريس فلم تكن قد تزوجت ولدها على قيد الحياة ، لذلك أوصى لها بجميع أراضيه في مقاطعة بروفانس ، أخذها في اعتباره أن بناته الثلاث اللاتي تزوجن أثناء حياته تم تعويضهن بصدق كبرى ، لذلك فقد تم حرمانهن من ميراثهن في مقاطعة بروفانس مما جعلهن يشعرن بالكرامة تجاه بياتريس وزوجها المقرب .

وقد تنافس على الزواج من بياتريس عدد كبير من ملوك أوروبا وأمرائها منهم، الملك جيمس الأول ملك أرغونة (١٢١٢ - ١٢٧٦) ، والكونت ريموند السابع صاحب تولوز (١٢٢٢ - ١٢٤٩) ، وشارل دانجو شقيق زوج اختها

(1) Leonard E. G. : Les Angevins de Naples , Paris , 1954 , PP. 41 - 47 , 60 .

الكبري مارجريت ، وقد بلغ من تصميم الأول على النواج منها أن نزل بجيشه محاصرا لها في بروفانس ، لكن بياتريس فضلت شارل الذي اقتحم مقاطعة بروفانس على رأس جيش فرنسي وحرر بياتريس وتزوجها في ينابير (١) .

ومن طريق نواج شارل من بياتريس ، انتقلت مقاطعة بروفانس ليده ، وفي العام التالي مباشرة (١٢٤٧) تسلم ميراثه أيضا في أملاك والده ، ذلك أن والده لويس الثامن كان قد أوصى قبل وفاته بأن يمنع الموارد ، إن جاء ذكرا ، كونتيتي^١ أنجو ومين Anjou and Main ، الفنتين فتسلمهما شارل بالفعل في عام ١٢٤٧ م. ، بعد أن بلغ سن الرشد ، ورغم الممتلكات الأخرى الكثيرة التي ألت إلى شارل ، كما نري فيما بعد ، إلا أن نسبته إلى أنجو لصقت به في النهاية ، فهو شارل صاحب أنجو ، ولم يعرف بأنه شارل صاحب مين أو بروفانس أو نابلي أو صقلية أو غيرها من ممتلكاته ، لذلك فمن الأهمية بمكان عرض نبذة سريعة عن كونتيتي أنجو .

تقع أنجو في غرب فرنسا ، علي ضفاف نهر اللوار وكان قد جرى إنشاؤها في القرن التاسع الميلادي ، أثناء الغزو التورماني لغرب فرنسا ، وفي عام ١٨٦١ م. منحها شارل الثاني الأصلع (٢) Charles The Bald ملك فرنسا

(1) Leonard : *Les Angevins de Naples* , PP. 47 - 49 .

Austin Lane Poole : *The Interregnum in Germany* , in C. Med. H. , vol VI , Cambridge 1968 , ed. Tanner , PP. 126 - 127 .

(2) للمزيد عن شارل الأصلع راجع :

Zumthor P. : *Charles le chauve* , Paris , 1957 .

Robert the strong (٨٤٠ - ٨٧٧ م) ، روبرت القوي (١) كونت تور ،
 الذي منحها بدوره لواحد من أ Cousins الاقطاعيين وهو فولك الثالث نيرا
 Folk III Nerra (٩٨٧ - ١٠٤٠ م) ، الذي أسس أسرة الحاكمة الانجليزية الأولى ، وقد
 وحد خلافاته أراضي هذه الكوتية وضمها إليها في ١٠٥٤ م ، كونتية تور حتى غدت
 أنجو في القرن الحادي عشر الميلادي واحدة من أقوى الإمارات في فرنسا ، وقد
 أشرف الكوتيات الذين حكموها على الطريق بين فرنسا وإسبانيا ، كما أهتموا
 بالتجارة ، الأمر الذي منحهم ايرادات ضخمة . وهكذا أصبحت كوتية أنجو في حالة
 ازدهار ورخاء اقتصادي ، وكانت العملة المستعملة في أنجو والتي تسك في تور ،
 واحدة من أفضل العملات تداولًا في غرب أوروبا .

وعند بداية القرن الثاني عشر الميلادي ضمت إلى أنجو كونتية مين Main ، وهي إلى الشمال منها ، وتحت حكم فولك الخامس (١١٠٩ - ١١٢٨) تحسنت
 الإدارة في أنجو وبنى قلعة جديدة بها ، وقد اشتري فولك السلام بتحالفه مع كل
 من ملكي إنجلترا وفرنسا ، ووضع تحالفه مع ملك إنجلترا هنري الأول في ١١٢٥ م .
 حدا للتنافس على مين ، كما أن هذه الاتفاقية كان لها شأن خطير وهام في التاريخ
 الوسيط ، فقد نصت على أن يتزوج ابن فولك ويدعى جيوفري بلانتاجني Geoffrey Plantagenet من ماتيلدا إبنة هنري الأول ملك إنجلترا ، وبناء على هذه الاتفاقية

(١) روبرت القوي هو ماركيز نيوستريا Neustria وهي أحدى المقاطعات الفرنسية ، وهو واحد
 من المخاتير الاقطاعيين الذين ظهرت في عهد الملك شارل الثاني الأصلع ، وأملاكه روبرت كوتية
 عديدة ، كحارب ضد التورمان الذين هاجموا وادي نهر اللوار ونجح في ايقاف غزفهم هناك ،
 وأوكل إليه الملك شارل الأصلع الدفاع عن المنطقة الواقعة بين نهر اللوار والسين ، وحكم كوتية
 تور وبارييس وقد سقط قتيلًا في معركة بالقرب من تور في عام ١٠٦٦ م .

والمزيد عنه راجع :

Lot F : Naissance de France , Paris , 1946 .

منح فولك ابنه جيوفري حكم أنجو ، وفي عام ١١٥١ م. فتح جيوفري نورمانديا وضمها إلى أنجو ، وبعد موته في نفس العام ، ورث ابنه هنري الثاني حكم أنجو ، ونورمانديا ، ومين ، وتورين ، كما ورث حقوق والدته في عرش إنجلترا ، وفي عام ١١٥٤ أصبح ملكاً لإنجلترا ، مؤسساً بذلك أسرة البلانتاجنيت التي منحت إنجلترا تقاليدما وخصائصها المميزة ، واستمرت تحكمها حتى عام ١٤٨٥ م^(١) ، وقد اهتم هنري الثاني بكونية أنجو وأسس قواعد البناء الاجتماعي والإداري بها .

علي أن أنجو لم تثبت أن خرجت من يد ملوك إنجلترا ، وانتقلت ملكيتها إلى ملوك فرنسا ، وذلك بعد أن فتحها في عام ١٢٠٦ م. فيليب الثاني أugustus ملك فرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣ م.) ، وضمها لملكاته ، ورغم ذلك فقد ظلت تنظيماتها كما هي من قبل ، واسند حكمها إلى وكيل ملكي ، وقد ظلت أنجو في يد الأسرة الحاكمة الفرنسية ، حتى ألت ملكيتها في عام ١٢٤٧ م. إلى شارل الذي أسس الأسرة الحاكمة الانجوية الثانية^(٢) .

وقد اتخذ شارل مقره في بروفانس ، وأخذ في التوسيع على حساب جيرانه ، فتدخل في الحرب الأهلية في إقليم الفلاندرز ، وعن طريق مساعدته لكونتيستة مارجريت في حربيها ضد ابنها حنا افنسن John of Avesnes تسلم شارل

(١) عن كل ما يتعلق بأسرة البلانتاجنيت وحكمها لإنجلترا راجع :

Harvey J. : The Plantagenets , U. K. 1979 , PP. 35 - 205 .

(٢) بخصوص كونية أنجو راجع :

Boussard J. : L'Anjou , in Fautier ed. , Histoire des institutions Française au Moyen Age , Vol 1,1957 .

Giullot O. : Le Comte d'Anjou et Son entourage au XIe Siécle , Paris , 1972.

Halphen L. : Le Comté d'Anjou au XIe Siécle , Paris, 1906 .

Lewis P. : Later Medieval France , Paris , 1968 .

كونتية هينولت Hainault ، واضططع بمهمة حارس الفلاندرز ، وتدفقت قواته على الكونتية ، الأمر الذي أغضب شقيقه الملك لويس التاسع غصباً شديداً ، فأمر شارل بترك هينولت ، وحكم سنة ١٢٥٦ م أن تعطي الفلاندرز إلى حنا أنسننس^(١)، وبكذا قضى على آمال شارل في إقليم الفلاندرز ، وظل الملك لويس التاسع يشعر بتائيب الضمير لوقفه من شارل وابعاده عن هينولت والفلاندرز ، حتى عرضه عن ذلك بتائيد ترشيحه لعرش الصقليتين ، كما سُنّي فيما بعد .

وإذا كان شارل قد فشل في تحقيق طموحاته في إقليم الفلاندرز فإن ذلك لم يثنه عن التوسع في اتجاه آخر ، وفي عام ١٢٥٧ م اكتسب حقوق السيادة على بعض اللوردات في سهل الألب ، كذلك اكتسب من ريموند كونت أورانج Orange حقوق الوصاية على مملكة أرل Arles ، وفي عام ١٢٥٨ م ، اعترف كونت فيتنيمجليا Ventimiglia ، الذي يعتبر فصلاً لجمهورية جنوا بشارل كسيده له ، وهكذا فرض شارل نفوذه على طول الساحل الإيطالي حتى سان ريمو San Remo ، وفي عام ١٢٥٩ م ، وبطريق الرشاوى والدهاء والوعود والتهديد العسكري نجح شارل في فرض سيادته على العديد من المدن في مقاطعة بييمونت Piedmont في شمال غرب إيطاليا . وفي العام التالي ١٢٦٠ م ، استطاع شارل أم يخضع لوردات موندوفي Mondovi وسيقا Seva ، وسالوزو Saluzzo ، وبذلك أحكم سيطرته على المقاطعة بكاملها^(٢) .

ولم تثبت الظروف أن هيات لشارل دانجو أن يقفز إلى عرش الصقليتين ، والواقع أنه في البداية لم يسع للحصول على هذا العرش ، وإنما البابوية هي التي سعت إلى ذلك ولم يكن هو بالشخص الذي يرفض مثل هذه الفرصة ،

(1) Leonard : Op. cit , PP. 48 - 49 .

(2) Leonard : Op. cit , PP. 50 - 51 .

التي وجد فيها تحقيقاً لأماله وأحلامه وطموحاته العريضة في الحكم والسيطرة وتفصيل ذلك أن البابوية كانت تريد القضاء على عائلة الهohenstaufen في صقلية وإيطاليا ، نظراً للعداء الشديد الذي اتسمت به العلاقات بين الطرفين منذ زمن بعيد ، والذي بلغ ذروته أثناء حياة الامبراطور فردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠ م) .

وبعد وفاة الامبراطور فردريك الثاني في ١٢٥٠ م ، خلفه ابنه كونراد الرابع ، الذي أنجبه من زوجته إيزابيلا ابنة حنادييرين وريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، في حكم الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لكن كونراد الرابع لم يستطع أن يصمد في وجه المعارضة في ألمانيا ، فغادرها إلى صقلية ، وحكم بها عامين فقط (١٢٥٢ - ١٢٥٤ م) بمساعدة أخيه غير الشقيق مانفريد الذي أنجبه فردريك من زوجته الإيطالية بيانكا لانسيا التي تنتهي إلى عائلة لانسيا الشهيرة ذات النفوذ والاتصالات الشاسعة في إقليم كالابريا في جنوب إيطاليا . وعند وفاة كونراد الرابع في ١٢٥٤ م . آل حكم الصقليتين وألمانيا الذي اقتصر على مقاطعة سوابيا Swabia إلى ابن كونراد الرابع وهو كونراد الخامس الذي عرف باسم كونرادين Conradin وهو تصغير اسم كونراد ، وقد أطلق عليه المعاصرون اسم (النسر الصغير) أو (الأسد الصغير) . وكان كونرادين قد تزوج ملكاً على الصقليتين في بالرمو عاصمة صقلية في عام ١٢٥٤ م . وعمره آنذاك لا يتعدى العامين فقط ، وعاش كونرادين في مقاطعة بافاريا في ألمانيا تحت رعاية والدته البافارية ، التي كانت أسرتها تحكم بافاريا ، وتزوجت البافارية هذه من الكونت مينارد Mainard كونت جوبيزيا Count of Garizia وأعلن نفسه ملكاً على الصقليتين في عام ١٢٥٨ م ، بمساعدة بارونات المملكة

وانصاره بها (١) .

وفي نفي الوقت استائف مانفريد الصراع مع البابوية من جديد فقد كان يهدف إلى توحيد إيطاليا وأحكام السيطرة على الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، واقامة سيادة في الشرق عن طريق فتح بلاد البلقان والاستيلاء على القسطنطينية (٢) . كما عرف عن مانفريد ما عرف عن والده فردرิก الثاني من عدم اليمان وإثارة المشاكل مع البابوية ، وقد أحرز مانفريد انتصارات كبيرة ، وامتد نفوذه إلى جانب الصقلتين في توسكانيا ، وكان متحالفاً مع أقوى الشخصيات في لبارديا في شمال إيطاليا ، وهو اللورد بيلافيسيني Pelavicini ، وامتد نفوذه أيضاً إلى ماركيه انكونا Ancona التابعة للبابوية ، وكانت العلاقات الطيبة تربطه بجمهوريتي البندقية وجنو ، كما استمر حكام تونس المسلمين يدفعون له الجزية السنوية التي كانوا يدفعونها لوالده فردريك الثاني ، وارتبط مع أمير أبيروس برابطة الصاهرة ، فتزوج ابنته هيلين ، كما زوج مانفريد ابنته كونستانس من بطرس الثالث وريث عرش أرغونة (٣) .

وهكذا أخذ مانفريد في توطيد نفوذه والعمل على تكوين إمبراطورية واسعة ،

(1) Hampe K. : Geschichte Konradins Von Hohenstaufen , innsbruck , 1894 , P. 21 .

(2) عن طورات مانفريد وخطبه تجاه شرق أوروبا راجع :

Gregoras : Historiae Byzantinae , ed. Webri , Bonn , 1829 , P. 72 .

Buchon J. : Recherches historiques sur la principauté française de Moreé , et ces Hautes Baronnies , vol 1 , Paris , 1845 , PP. 103 - 104 .

است غتيم : معركة بلاجوريا ونهاية الصراع بين نيقية وأبيروس حول القسطنطينية ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص ١٢ - ١٥ .

(3) Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 in C. Med. H. ed. Tanner , vol VI P. 184 .

وهذا ما أزعج البابوية وجعلها تعمل على تدميره والقضاء عليه .

فقد أخذ البابا الاسكتندر الرابع Alexander^(١) ، الذي تولى كرسي البابوية في الفترة من ١٢٥٤ - ١٢٦١ م ، في البحث عن شخص ينتمي إلى عائلة من العائلات المالكة في أوروبا ليحل محل مانفريد ملكاً على الصقليتين ، فاتجه البابا إلى ملك إنجلترا هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، وتم ترشيح ابنه الأصغر الأمير إد蒙د Edmund لهذا المنصب . وبعد مفاوضات واتصالات بين البابا والملك هنري الثالث وبaronات إنجلترا ، جرى رفض هذه الفكرة وأصدر البابا الاسكتندر الرابع مرسوماً في ١٨ ديسمبر ١٢٥٨ م الغي فيه هذا الترشيح ، أما الأمير إد蒙د ، فقد فضل أن يكون ايرل لانكستر Earl of Lancaster على أن يكون ملكاً للصقليتين^(٢) .

للمزيد يلقي البابا الاسكتندر الرابع ان توفي في ١٢٦٤ م . وخلفه البابا ايريان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤ م) الذي كان من أصل فرنسي ، واستأنف نفس سياسة البابوات السابقين ضد أسرة الهونستاوون ومانفريد علي وجه الخصوم ، ولم يكن

(١) الاسم الحقيقي للبابا الاسكتندر الرابع هو رينولد اوفر سيجني Raynald of Segni ، وهو ينتمي إلى عائلة رومانية أعرية كانت تحكم كونتية سيجني ، وتولى منصب كاردينال اوستيا Ostia ، وفي عام ١٢٥٨ م . عندما اشتاد نفوذ حزب الجبلين الموالي للملكية في إيطاليا ، داخل روما نفسها ، فقرر البابا الاسكتندر الرابع فيتربو واتخذها مقراً له .

راجع :

Barraclough G : The Medieval Papacy , London , 1975 , PP. 137 - 140 .

(٢) عن تفاصيل المفاوضات التي حدثت بين البابا الاسكتندر الرابع والملك هنري الثالث وبaronات إنجلترا بخصوص ترشيح الأمير إد蒙د لعرش الصقليتين راجع :

Powicke F. : King Henry III and The Lord Edward , vol I , Oxford , 1947 , PP. 370 - 387 .

أمام البابا ايريان الرابع إلا الاتجاه صوب الأسرة الحاكمة في فرنسا للبحث عن مرشح يحل محل مانفريد ، ذلك أن المفاوضات مع انجلترا بهذا الخصوص باءت بالفشل ، ولم يكن من الممكن أن يتوجه البابا صوب ألمانيا للبحث عن مرشح ضد مانفريد ، فلم يكن هناك إمبراطور على عرش ألمانيا في ذلك الوقت ، كما أن كونرادين صاحب الحق الشرعي في الصقليتين كان يحكم مقاطعة سوابيا وعائلة والدته كانت تحكم بافاريا ، وكان كونرادين هو حفييد فريدريك الثاني أي من نفس عائلة الهohenstaufen ، وكان يطالب بحقه في حكم الصقليتين . أما في إسبانيا فقد كان الملك جيمس الأول ملك أرغونية علي أتم الاستعداد لتولي عرش الصقليتين ، لكن البابا كان لديه من الأسباب ما يحول دون الموافقة عليه ، لأن جيمس كان في حالة تحالف مع مانفريد ، ونتيجة لهذا التحالف تزوجت كونستانس ابنة مانفريد من بطرس الثالث ابن جيمس . أما ملك قشتالة ألفونسو العاشر Alfonso X (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م) فقد كان مغضوباً عليه هو الآخر من جانب البابا نظراً لعلاقات الود والصداقة التي ربطت الفونسو بحزب الجيلين Ghibellines (١) ، في شمال إيطاليا ، وهو الحزب الملكي المعارض للبابوية .

وهكذا لم يعد أمام البابا ايريان الرابع سوى أن يتوجه نحو فرنسا وملكيها لويس التاسع ، فارسل إليه في باريس في ربيع عام ١٢٦٢ مندوباً عنه هو البرت بارما Albert Parma ، الذي أوضح للملك لويس رغبة البابا في تقليد عرش مملكة الصقليتين لأمير من أسرته . غير أن الملك لويس رفض أن ينفرد هو أو أحد

(١) عن هذا الحزب ونشأته وميوله راجع :

Buchler J : Die Hohenstaufen , 1995 .

Hyde : Society and Politics in Medieval Italy , 1973 .

اسمت غثيم : زواج التحالف في العصور الوسطى ، الاسكتدرية ١٩٨٦ ، من ٤٧ ، حاشية رقم ٢ .

ابنائه هذا العرش ، وإنما وافق على اقتراح بارما أن يتولاه شقيقه الأصغر شارل كونت أنجو ، وبينما كان بارما يستعد للتجهيز إلى بروفانس حيث مقر شارل ، وصل إلى باريس رسول من البابا إلى بارما يأمره بتوجيه بحث هذا الموضوع ^(١) . أما عن الأسباب التي دفعت البابا لذلك فهي خاصة بالمقاييس التي بدأت بينه وبين مانفريد ، بعد أن أرسل مانفريد سفارته إلى البابا معلنا استعداده للحضور إلى مقره في فيتربو Viterbo ^(٢) من أجل التفاوض ، وقد وصلت سفارته مانفريد إلى البابا في أوائل نوفمبر ١٢٦٢م ويقيت في المقر البابوي حتى نهاية نوفمبر ، ثم أعادها البابا إلى مانفريد حاملة شروطا محددة منها : الاعتراف بحق مانفريد وخلفاته في مملكة الصقليتين دون النظر لادعاءات كونراديين ، علي أن يدفع مانفريد مبلغا كبيرا من المال للبابوية ، بالإضافة إلى الجزية السنوية ، وقد اشترط البابا

(١) Jordan : Les Origines de la Domination Angevine , PP. 374 - 378 .

(٢) تقع فيتربو في جنوب إقليم توسكانيا ، شمال غرب روما ، وهي مدينة رومانية قديمة ، وقد كانت تتبع الكورتيسيه ماتيلدا صاحبة توستانيا ، ولكنها منحتها للبابوية وقعا لصالح كنيسة القديس بطرس في ١١١٥م . وقد امتازت المدينة بالجو المعتدل والمناظر الطبيعية الخلابة ، واحتضنتها البابوية العاصمة الثانية لها بعد روما والمقر الصيفي للبابوات في القرن الثالث عشر الميلادي . وفي عام ١١٤٥م . بعد أن اختار أهالي روما مجلسا للشيخ (سناتو) من بينهم ، خصب البابا آيو جينيسيوس الثالث (١١٤٥ - ١١٥٣ م) ونقل كرسى البابوية والمقر الدائم إلى فيتربو ، وأثناء الصراع بين البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة ، عانت المدينة من العوائد الدامية العديدة ، كما كانت مسرحاً للمقابلة التي تمت بين الإمبراطور أوتو الرابع Otto IV والبابا إينوسنت الثالث في عام ١٢٠٩م . ومع استمرار اقامة البابوات في فيتربو ، أقيمت مباني عديدة من القصور والكتانس ، وقد تم انتخاب عدد من البابوات في فيتربو منهم إيريان الرابع وجريجوري العاشر ، وبيونينا الحادي والعشرين ونيقولا الثالث ، ومارتن الرابع ، وقد مات بها كل من البابوات الاسكتر الرابع وكليمانت الرابع وإريان الخامس وبيونينا الحادي والعشرين . عن فيتربو وتاريخها راجع :

Signorelli G. : Viterbo nella Storia della chiesa , 2 vols , 1907 - 1940 .

كذلك شرطاً كان من المستحيل على مانفريدي تحقيقه ، وهو أن يسمح للمعارضين السياسيين الذين سبق أن تناهوا عن مملكته بالعودة إليها مرة أخرى ، وأن يعيد اليهم أراضيهم التي سبق أن صادرها^(١) . وطبعاً أن يرفض مانفريدي هذا المطلب ، لأن معنى موافقته على عودة المعارضين لحكمه إثارة المشاكل والاضطرابات السياسية في أنحاء مملكته ، والارجح أن البابا كان يهدف فعلاً إلى هذا حتى يشغل بهم مانفريدي عن الفتح والغزو ومضايقة البابوية ، وحتى لو وافق مانفريدي على هذا الشرط فإن مستشاريه ورجاله الذين منحهم مانفريدي هذه الأراضي بعد مصادرتها لن يوافقوا على التفريط فيها واعادتها لأعدائهم . وقد رفض مانفريدي ورجاله شروط البابا ، وفكروا في عرض شروط جديدة على البابا ايريان الرابع الذي لم ينتظر فأرسل إلى مندوبيه في باريس البرت بارما يكمل مفاوضاته مع شارل دانجو^(٢) .

مالبث شارل وشقيقه الفونسو كونت بواتيه أن زارا باريس واجتمعا مع شقيقهما الأكبر القديس لويس ، ويبحث الجميع موضوع الحملة الصليبية الجديدة التي أزمع لويس القيام بها ضد المسلمين ، كما بحثوا أيضاً موضوع ترشيح البابوية لشارل لتولي عرش الصقليتين . وبعد تبادل الرسائل والزيارات في اورفيتو^(٣) حيث كان البابا ايريان الرابع موجوداً ، وبباريس ، وبروفانس حيث مقر شارل ، وافق الجميع على مشروع الاتفاقية بين شارل والبابا ، ووقع البابا

(1) Jordan Op. cit , P. 389 - 495 .

(2) Jordan : Les Origines , PP. 389 - 401 .

(3) اورفيتو ، مدينة في وسط ايطاليا ، بين روما وفلورنسا ، وتقع إلى الشمال من فيتيرو ، وفي ٥٨٨ م أصبحت بؤرة لمباربة ، وبعد فتح شارل لأن لايطاليا أصبحت كوتية في ٧٧٣ م . ومنذ القرن التاسع أصبح الكوتات بها يخضعن لحكم توسانيا ، لكنها حصلت على استقلالها بعد موت الكرتيسة ماتيلدا في ١١١٥ م . وأصبحت قومونا مستقلة حتى ١٤٤٨ م حينما ضمت إلى الممتلكات البابوية ، وقد اشتهرت بكاتدرائيتها التي بنيت فيما بين ١٢٩٠ - ١٣٧٠ ، على طراز من المعمار القوطي الايطالي المتأخر ، راجع :

أيوبان الرابع في ٢٦ يونيو ١٢٦٢ مرسوماً بموافقته على هذه الاتفاقية ، وأصبحت الاتفاقية عند نهاية يوليو ١٢٦٣ م سارية المفعول ، وأصبح شارل دانجو هو بطل الكنيسة المنتظر^(١) .

ويجد الدارس لشروط هذه الاتفاقية أنها كانت في صالح البابوية أكثر مما كانت في صالح شارل ، فقد نصت على ما يلي :

١- تخلي الملك الجديد للصقليتين عن المركز الذي كان للحكام النورمان من حيث أنه ممثل البابا Apostolic Delegate في مملكته .

٢- لا يكون له أي رأي فيما يتعلق بشغل المناصب الشاغرة في الكنائس ، أو السلطة القضائية الكنسية .

٣- ليس من حقه أن يجبي أية هرائب من رجال الدين ، ولا أن يمارس الحق التقليدي للملوك في التمتع بايرادات الاستحقاقات الشاغرة .

٤- لا يسمح له بتقلد أي منصب في إيطاليا ، سواء في الولايات التابعة للملكية أو التابعة للبابوية .

٥- لا يسمح له بمصادرة كل أو جزء من أي اقطاع أخذته الكنيسة من الناج ، أو التقليل من قيمته بأية طريقة .

٦- يجب أن يتتأكد من وجود إدارة جيدة في المملكة ، مثل تلك التي كانت موجودة أيام الملك وليم الثاني النورماني ، كما لا يجب أن

=Hyde J. : Society and Politics in Medieval Italy , 1973 .

(1) Jordan : Op. cit , PP. 392 - 401 .

يفرض على رعاياه ضرائب مبالغ فيها .

٧- اذا اختار البابا الاستفقاء عنه ، فلا يجب ان يطلب مساعدة انصاره ضد البابا .

٨- يجب ان يعد البابا بثلاثمائة فارس او عدد من السفن عندما يطلبها .

٩- يجب عليه ان يدفع جزية سنوية للبابوية تقدر بعشرة آلاف اونصة من الذهب .

وفي المقابل أسيغت عليه البابوية حمايتها وسمحت له أن يجيء ضريبة العُشر لمدة ثلاثة سنوات من كنائس فرنسا وبروفانس وأرل . كما أخذ البابا على عاتقه شن حملة صليبية ضد مانفريد ، كما وعد بالا يسمع لكونرادين أو أي شخص آخر ، بالطالبة بعرش الصقليتين ^(١) .

و واضح مدى صعوبة وقوفة هذه الشروط ، فملك الذي اختارته البابوية يجب أن يتبع تماما عن الشؤون الدينية في مملكته ، كما أنه ليس من حقه أن يتقلد أي منصب علماني أيضا مهما كان صغيرا داخل ايطاليا ، وإذا أراد البابا أن يستغنى عنه أو أن يستبدل به بأخر قليس من حقه أن يعتراض ، كل ما عليه أن ينفذ رغبة البابا ، كما أن الجزية السنوية التي فرضتها عليه البابوية والتي تقدر بعشرة آلاف اونصة من الذهب سنويا ، تفرق ثلاثة مرات ما كان يدفعه ملوك التورمان للبابوية . ورغم هذا فقد قبلها شارل ، ويرجح المؤخ الايطالي المعاصر

(١) فيما يتعلق بالاتفاقية بين البابا وشارل دانجو راجع :

Jordan : Les Origine de la Domination Angevine en Italy , Paris 1909 , PP. 20 - 26 .

فيلاني^(١) أن شارل اضطر لقبول هذه الشروط المجنحة نظراً لحث زوجته له على قبولها نظراً لأنها كانت تشعر بالغيرة من شقيقاتها اللاتي تزوجن ملوك ، مثل ملك فرنسا ، وملك إنجلترا ، وملك الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد أرادت هي الأخرى أن تصبح ملكة مثلها مثل شقيقاتها^(٢).

غير أن الدارس الشخصية شارل ، يجد أنه ليس بالشخص الضعيف الذي يخضع لرغبات زوجته ، وإن أحالمه وطموحاته الشخصية فاقت بكثير أحالم زوجته وطموحاتها ، وقد أجمع المؤرخون المعاصرون والقريبيون العهد من عصره ، سواء في الغرب مثل فيلاني وسانينيو^(٣) ، أو في الشرق مثل

(١) جيوناتي فيلاني Giovanni Villani ، كاتب حوليات عاش في الفترة من ١٢٧٥ - ١٢٤٨ م. وهو ينتمي إلى عائلة بورجوازية من كبار تجار فلورنسا ، وقد أخذ فيلاني ينتقل بين إيطاليا وفرنسا في الفترة ١٢٠٤ - ١٢١٢ م. وعند عودته لفلورنسا عمل كقائد عسكري ومحترف على تحصيناتها ، وكان معروفاً بميله نحو البابوية وكان أحد أعضاء حزب الجلف الموالي لها ، وكتب حوليات Cronica غطي فيها تاريخ فلورنسا وخاصة الحوادث التاريخية التي عاصرها ، وأسلوبه واضح بسيط ، استطاع به أن يقدم معلومات غزيرة بموضوعية محسنة وعقلية محبة للبحث والتحقيق ، وقد توفي أثناء زيارة الطاعون الذي اجتاح إيطاليا في عام ١٢٤٨ ، راجع :

The Illustrated Encyclopedia of Medieval civilization , U. S. A. 1980 , P. 700 .

(2) Villani : Cronica , Florance , 1823 , vol 11 , PP. 129 - 130 .

(٣) هو المؤرخ الإيطالي مارينو سانينيو تورسييللو Marino Sanudo Torsello ، من مواليد البندقية ، عاش خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وله عدة مؤلفات أهمها لموضوع هذا البحث هو كتابه (تاريخ مملكة رومانيا) Istoria del Regno di Romania ، والمقصود برومانيا ، كما هو معروف ، الإمبراطورية البيزنطية ، وقد كتبه سانينيو باللغة اللاتينية لكن لم يصل إلى أيدي المؤرخين إلا الترجمة الإيطالية لهذا الكتاب . ويرجع كل من =

جريجوراس^(١) . ، على أن طموحه وأحلامه لم تكن تقف عند حد معين ، وأنه كان يحلم بتكون إمبراطورية تضم البلاد المطلة على البحر الأبيض المتوسط في الشرق والغرب على حد سواء ، وأنه كان يعمل بكل الهمة والنشاط ، وبكل العنف ونفاد الصبر ، على تحقيق أحلامه في السيادة والفتح^(٢) . لذلك فقد قبل شارل شروط البابا لأن يمقدوره فيما بعد ، أن يحولها لخدمة مصالحة واهداف الشخصية .

و هنا يبرز تساؤل هو ، مع معرفة الجميع بصفات شارل هذه وطموحه ، ألم يعتري الخوف البابا ابريان الرابع من مثل شخصية شارل دانجو ومدى خطورها على

= المؤرخين وWolf وجيانا كوبيلوس Geanakoplos ، ان الأصل اللاتيني قد فقد ، وترجع أهمية هذا الكتاب الذي كتبه سانينيو في الفترة المبكرة من القرن الرابع عشر إلى أنه كان شاهد عيان لمعظم الحوادث التي ضمتها كتابه ، كذلك اعتمد فيه على تقارير ووثائق رسمية ، كانت موجودة في عصره وانشرت الآن ، ولسانينيو مؤلفان آخران أحدهما مجد فيه الحروب الصليبية ويعرف باسم Secreta Fidelium Crucis وعرف عن سانينيو انه من أشد المعجبين بتاريخ الحروب الصليبية . أما العمل الثالث لسانينيو فهو الرسائل المتبادلة بينه وبين الامبراطور اندرونيقوس الثاني باليلوجوس (١٢٨٢ - ١٣٢٨ م) وعرفت باسم Epistulae ، والمزيد عن سانينيو ومؤلفاته راجع :

Wolff : Studies in the Latins Empire of Constantinople , London , 1976 . Ch. v , P. 45 ff .

Geanakoplos : The Emperor Michael Paleologus and the west , U. S. A. , 1959 , P. 9 , P. 395 .

(١) هو المؤرخ البيزنطي نقفور جريجوراس عاش في الفترة من ١٢٩٥ - ١٣٥٩ م. والمزيد عنه راجع : اسمت غنيم : امبراطورية في المتنبي ، ثيودور لاسكاريس وأحياء الامبراطورية البيزنطية في نيقية ، ص ١٨٩

(2) Villani : Cronica , val 1 , P. 320 .

Sanudo : 1 Storia Regno di Romania , in Hapf , Chroniques Créco - Romanes , Berlin , 1873 , P. 138 .

Gragras : Historiae Byzantinac , ed. Webri , Bonn , 1829 , in C. S. H. B. P. 123 .

البابوية نفسها فيما بعد ؟

الارجح ان البابا ايريان الرابع قد وضع هذه الشروط القاسية متصورا ان شارل سوف يلتزم بها وينفذها بكل الدقة ، وبذلك يحمي البابوية نفسها من خطر شارل ، في الوقت الذي وضع فيه البابا نصب عينيه القضاء على خطر مانفريد وأسرة البرمنستاوفن في ايطاليا ، ولم يكن مانفريد بالشخص الهين أو الضعيف ، لذلك بحث البابوية عن شخصية قوية لها امكانات مادية وعسكرية كبيرة تمكنها من القضاء على مانفريد ، فوجدت في شارل دانجو الرجل المناسب للاضطلاع بهذه المهمة ، خاصة وان شقيقه الملك لويس ملك فرنسا يمكن أن يسانده بما تملكه فرنسا من امكانات ، بعد ان اقتتن الملك لويس بحكم ورعيه وتقواه ان مانفريد يمثل خطرا داهما على المسيحية وعلى البابوية ، وربما كانت مساندة لويس لشقيقه شارل في الوصول لعرش الصقليتين أيضا هو نوع من التكثير عن الذنب ، فقد كان حب لويس لشارل أقل من حبه لباقي أشقائه ، كما سبق ان أشرنا ، كما أن زوجة لويس الملكة مارجريت كانت تكن الكراهية لشارل بصفة خاصة لأنه حرمتها من ميراثها في مقاطعة بروفانس بزواجه من شقيقتها ، وكانت دائم التحرير لزوجها لويس ضد شقيقه شارل ، يضاف لذلك موقف الملك لويس من فتوحات شارل في اقليم الفلاندرز ، وما حدث من اجباره على ترك هينولت والانسحاب من الاقليم ، لذلك حاول لويس تعويض شازل وتايده ومساندته في الوصول لعرش الصقليتين ، وهذا بالطبع ما أسعد البابوية وجعل كفة شارل ترجح لدى البابا ايريان الرابع الذي كان فرنسيا كما سبق أن أوضحنا ، وكان منحازا لأبناء وطنه .

ولم يمض وقت طويل حتى اكتشفت البابوية أي نوع من الرجال اختارته للدفاع عنها ، اذ سرعان ما نقض شارل ، وقبل اكمال عامين ، شروط المعاهدة التي وقعت بينه وبين البابا ايريان الرابع (في يوليو ١٢٦٣) ،

وذلك بقبوله منصب سناتور روما .

فقد وقع صراع عنيف على حكم روما ، التي لم يكن البابا ايربيان الرابع يقيم بها ، والتي عين لها هيئة من الرجال الصالحين Boni Homenes ليحكمها ويقومون فيها بأعباء الادارة ، إلا أنهم لم يكونوا أكفاء لادارة المدينة ، في الوقت الذي قام فيها صراع بين حزب الجيلين الموالي للملكة وأسرة الهونستوفن ، وحزب الجلف Guelph (١) الذي يدين بالولاء والتأييد للبابوية . فاقتصر حزب الجيلين على مانفريد قبل تنصيبه سناتور علي روما ، ورتب نزوح ابنته بطرس الثالث زيارة لروما بدعوي الحج ، ولكنه في واقع الأمر كان يقوم بالدعاهية لصهره مانفريد ويقدم نفسه هو لهذا المنصب كمرشح بديل لمانفريد . غير أن هذه الخطة قوبلت بالمقاومة من جانب الكاردينال ريتشارد انبيالدي Richard Annibaldi الذي كان موجودا بالمدينة وقام باقتحام حزب الجلف بالردد على ذلك باختيار سناتور قوي يكن مخلصا لهم ، وبناء على اقتراحه رشحوا لمنصب سناتور روما شارل دانجو ، الذي وافق على قبوله (٢) . وهكذا خرب شارل عرض الحائط باتفاقه مع البابا التي نصت على عدم السماح له بتقلد أي منصب في ايطاليا سواء في الولايات التابعة للملكة أو تلك التي تكون تابعة للبابوية . وهكذا أوقع البابا ايربيان في درره ، خاصة بعد أن أعلن عدد من الكرادلة ضرورة عقاب شارل على تحديه للبابوية وعدم احترامه لشروط اتفاقيته مع البابا . لكن البابا ايربيان الرابع استسلم للأمر الواقع ووافق على تعين شارل سناتور لروما بصفة مؤقتة ، وذلك لسبعين ، الأول : هو رغبته في عدم معارضته اقتراح الكاردينال انبيالدي واهانة من يؤيده في روما من حزب الجلف ، والسبب

(١) عن حزب الجلف راجع :

اسم غنيم : زواج التحالف ، ص ٤٢ حاشية رقم ٢ .

(2) Jordan : Les Origines , PP. 458 - 460 .

الآخر: هو تصميم مانفريد علي فتح مدينة لوكا Lucca وهي المدينة التابعة لحزن الجلف في توسكانيا ، وكانت الوحيدة التي لم تستسلم لمانفريد في هذا الاقليم ، لذلك فقد حاصرها مانفريد وأجبرها على الاستسلام ، فأحكم سيطرته علي وسط ايطاليا خلال الشهور الأولى من عام ١٢٦٤ ، مما أضطر البابا للموافقة علي تعيين شارل سناتور علي روما بعد أن وجد نفسه محاصرا من جانب مانفريد ^(١) .

ولم يلبث البابا ايريان الرابع ان توفي في مدينة بروجيا Perugia في ٢ أكتوبر ١٢٦٤ م. وتم انتخاب خليفة له كاردينال سابينا Sabina ، الذي اعتلى كرسي البابوية في ١٥ فبراير تحت اسم كلمنت الرابع Clement IV ^(٢) .

وفي ٢٣ مايو ١٢٦٥ ، دخل شارل دانجو روما ، واتخذ له مقرا بها في قصر السناتور في الكابيتول Capitol ، وعندما علم مانفريد بذلك صاح قائلا : " لقد دخل الطائر القفص " ، واعتقد ان الأمر لن يحتاج لأكثر من حملة صغيرة يطوّقه فيها ويجبه علي الاستسلام ^(٣) .

اما شارل فقد أرسل إلى زوجته الكونتيسة بياتريس في فرنسا لكي تلحق به

(1) Jordan . Op. cit , PP. 460 - 468 .

(2) الاسم الحقيقي للبابا كلمنت الرابع هو جي فولكوا Guy Foulquoy ، وهو ينتهي إلى عائلة فرنسية من النبلاء ، وقد درس القانون في باريس ، وخدم في تولوز تحت سلطة الفوشن دي بواتييه الذي قدمه لشقيقه الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد اتخذه لويس مستشارا له ، ثم عين كاردينالا لاسقفية سابينا ، في وسط ايطاليا ، حتى تم انتخابه بابا وظل في هذا المنصب من ١٢٦٥ حتى وفاته في ١٢٦٨ ، للمزيد عنه راجع :

Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 , in C. Med. H. vol VI , P. 183 .

Jordain : les Registres de Clement IV , Paris , 1945 .

Barracough G. The Medieval Papacy , U. K. , 1955 , PP. 118 - 140 .

(3) Jordan : Les Origines , PP. 524 - 526 .

في روما ، فجاعت بالفعل في ديسمبر من نفس العام ، وطلب شارل من البابا ان يحضر اليه في روما لكي يتوجه هو وزوجته ملكا وملكة علي عرش الصقليتين ، لكن البابا كليمينت لم يرغب في ان يترك مقره في بروجيا ، ولذلك ارسل خمسة كرادلة ليحلوا محله وقاموا بمراسم التتويج في كنيسة القديس بطرس في ٦ يناير ١٢٦٦ ، وأصبح شارل دانجو ملكا علي الصقليتين^(١) .

وهكذا أصبح هناك أكثر من ملك علي عرش الصقليتين مانفريد وهنستاوفن وزوجته هيلين اوف ابيروس ، وأل إلي مانفريد العرش بالميراث ، وشارل دانجو وزوجته بياترييس اوف بروفانس ، وانتقل العرش إلي شارل عن طريق اختيار البابوية ، وكان لابد من معركة عسكرية يقضي فيها أحدهما علي الآخر وينفرد بالعرش .

ولم يرغب شارل في أن يمكث طويلا في روما ، لكي يتمكن من أن ينهي موضوع مانفريد بأسرع ما يمكن ، حتى يتفرغ بعد ذلك لتحقيق طموحاته في الفتح والغزو ، فترك في روما حامية صغيرة وخرج منها بكمال قواته في ٢٠ يناير وسار بجيشه علي طريق Via latina ووصل إلى سبرانو Ceprano علي نهر ليري Liri في جنوب إيطاليا ، وقد عبرت قوات شارل النهر عن طريق جسر مقام عليه كان مهملا لكنه أوفي بالغرض ، وعسكر في حصن كابوا Capua شمال نابولي ، وكان شارل قد فكر في حماية قاعدته في نابولي ، بوضع خطة للاستيلاء على الحصون الواقعة علي طول نهر فولتورنو^(٢) Volturno ، وبالفعل تمكّن جيشه من

(١) Villani : Cronica , vol 11 , PP. 142 - 143 .

(٢) نهر فولتورنو هو النهر الرئيسي في جنوب إيطاليا ، وهو ينبع في أقليم Apennien جنوب شرق روما ، ويجري أولا في اتجاه الجنوب ثم ينحرف إلى الغرب بمسافة ١٧٥ كم ليصل إلى خليج Gaeta علي البحر التيراني ، وهو يبعد عن نابولي بنحو ٣٥ كم إلى الشمال ، راجع: Lexicon Universal Encyclopedia , U. S. A. 1980 , vol 19 , P. 632 .

الاستيلاء على اثنين وثلاثين قلعة وحصناً كان من بينها الحصن الكبير سان جيرمانو San Germano على تل كاسينو Cassino الذي سقط في يد شارل في ١٠ فبراير ١٢٦٦ . وفي الوقت الذي عسكر فيه مانفريد بقواته في أعلى نهر فولتونو وصل شارل بقواته إلى هناك محاولاً تطويق قوات مانفريد وحصاره وحتى يضيع عليه مانفريد هذه الفرصة ، تحرك بقواته متوجهًا نحو مدينة بنفتونو (١) Benvento فوصل إليها وزع قواته حول المدينة ، وتبعه شارل إلى هناك فوصل بقواته إلى التل الذي ينادي إلى مدينة بنفتونو في ٢٥ فبراير ١٢٦٦ م ولما رأى تشكيلات جيش مانفريد ، أصيب شارل بالاحباط خاصة بعد المجهود المضني الذي بذله قواته أثناء عبورها التلال والجبال في فصل الشتاء حتى نفقت كثير من الحيوانات المستخدمة في جيشه ، وترك كثير من العربات في الطرق غير المهدأة ،

(١) بنفتونو مدينة في إقليم كمبانيا Campania جنوب إيطاليا ، وقد دمرها القوط الشرقيون ، ولكن بعد عودة إيطاليا ليد الإمبراطور جستينيان في ٥٥٤م. أعاد البيزنطيون بناعها ، وفي عام ٥٧٠م تعرضت المدينة لغزو الومبارديين واحتلتها عاصمة لملكوكاتهم في جنوب إيطاليا ، ومنذ ذلك الحين وهي تعرف باسم بوقية بنفتونو ، وقد تمعن الایواق الذين حكموها بقدر كبير من الاستقلال وخاصة في القرن الثامن الميلادي ، وقدتمكن حكامها من صد هجمات البيزنطيين ثم المسلمين لغزو الدوقية كما ظلت مستقلة أيضًا عن الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد اضفتها المعارك المستمرة التي خاضتها من أجل المحافظة على استقلالها ، وانتهي الأمر بها في القرن الحادى عشر الميلادي إلى التقسيم إلى عدة مقاطعات قام النورمان بغزو معظمها وضمنها إلى مملكتهم في صقلية ، أما مدينة بنفتونو ذاتها فقد ألحق بالملكوكات البابوية في عام ١٠٥٤م. وظلت كذلك حتى عام ١٨٦٠م. وقد ارتبطت بنفتونو بصلات اقتصادية وثيقة بمدينة نابولي وقد بنيت في بنفتونو كاتدرائية استغرق بناؤها من القرن التاسع وحتى القرن الثاني عشر وكانت تعد تحفة فنية رائعة تعبّر عن الفن المعماري الذي اشتهر في جنوب إيطاليا ، وقد دمرت هذه الكاتدرائية أثناء الحرب العالمية الثانية :

بخصوص ما يتعلق بنفتونو راجع كتاب هيرتش عن (بوقية بنفتونو) :

Hirsch : 1 L ducato di Benevento , 1968 .

ونفذ الطعام ، وبذا وکأن مقوله مانفريد أن الطائر قد دخل القفص ، فيها جانب كبير من الحقيقة فعلاً^(۱) .

وكان الموقف حتى ذلك الوقت في صالح مانفريد تماماً فما كان عليه الا ان يقصد في موقعه المحصن في انتظار وصول ابن شقيقه كونرادين من المانيا بالامدادات ، حتى يجبر الجوع شارل وجيشه إما على التراجع أو الاستسلام ، غير أن مانفريد كان نافذ الصبر لعدة أسباب منها : عدم ثقته في ولاء رعاياه من جهة ، وما أظهره العديد من رجاله من رغبة في الاستسلام لعدوه من جهة أخرى ، كما أنه كان يشك في ان كثيراً من البارونات المحليين وخاصة من حزب الجبلين المؤيد للهونستاوفن في ايطاليا ، كانوا في حالة تردد في الولاء له من جهة ثالثة ، وبينوا أن ما يذلةه البابوية من وعود برقة لإغراء هؤلاء بالتخلي عن مانفريد قد وجدت قبولاً لديهم ، يضاف إلى كل ذلك ان مانفريد لم يكن واثقاً من موعد وصول كونرادين علي وجه التحديد . لهذا فبمجرد أن تلقى مددًا من شماماته من الالمان المرتزقة باسر بالتحرك نحو شارل لمنازله في معركة حاسمة ، في الوقت الذي كان شارل يتوجه فيه من أعلى التل إلى السهول المحيطة بمدينة بنفتون ، لذلك أسعده أن يرى جيش مانفريد يتقدم ببطء مقابلته .

وفي اليوم التالي أي يوم الجمعة الموافق ۲۶ فبراير ۱۲۶۶ ، اشتتبك الجيشان في معركة ضارية عرفت في التاريخ باسم معركة بنفتون ، حيث كانت قوات مانفريد موزعة على النحو التالي : في المقدمة كان المسلحون من رماة السهام ، وخلفهم الفرسان الالمان يرتبون دروعاً صلبة ويبلغ عددهم حوالي ۱۲۰۰ فارساً تحت قيادة ابن خال مانفريد ويدعى جيوردانو لانسيا Giordano Lancia ، وخلفانو اوفر

(۱) Leonard : Op. cit , PP. 57 - 58 .

Oman : A History of the Art of war in the Middle Ages , vol I , PP. 498 - 499 .

انجلونا Galvano of Anglona ، وخلفهم وجد الفرسان الإيطاليون من لمبارديا وتيسكانيا ، وبلغ عددهم نحو ألف مقاتل تحت قيادة خاله جلفانو لانسيا Gelvano Lancia أمير سالرنو ، ورافقهم نحو ثلاثة فارس من المسلمين بأسلحتهم الخفيفة ، أما مانفريدي نفسه فقد كان في الخلف على رأس الجسر مع الفرق الاحتياطية وهي من فرسان المملكة من حزب الجبلين وهو الحزب المؤيد للهohenstaufen أي المؤيد للملكية وكانتوا نحو ألف فارس ، ولم يكن مانفريدي يثق فيهم ثقة كاملة ، ولهذا لم يكن يرغب في استخدامهم الا اذا أحرز النصر في المعركة .

كذلك كان يصاحب شقيقا زوجته هيلين ابنة أمير ابيروس ، وهما ريتشارد كاسرتا Richard Count of Caserta ، وتوماس كونت اسيرا Manfred Maletta Count A Cerra وأيضا حاجبه ويدعى مانفريدي ماليطا Tebaldo Annibaldi الذي ظل ملزماً لمانفريدي حتى النهاية^(١) .

كان هذا جيش مانفريدي أما جيش شارل دانجو ، فقد كانت له بعض المزايا التي رجحت كفته فقد تحرك إلى أرض أكسبيت تفوقاً على عدوه وكانت في صالحه تماماً ، إذ انحدرت في رفق نحو النهر ، كما كان يثق في جيشه أكثر مما أظهره مانفريدي تجاه رجاله . وقد قسم شارل جيشه هو الآخر إلى ثلاثة مجموعات من الفرسان ، كما صاحبته مجموعة كبيرة من المشاة من رماة النشاب التي أخذت مكانها في المقدمة ، أما المجموعة الأولى من الفرسان فكانت تتكون من نحو ٩٠٠ فارس من البروفنساليين تحت قيادة المارشال الفرنسي هيو دي ميريوا Hugh de

(1) Villani : Cronica , vol 11 , PP. 147 - 150; Malaspina , Saba: Historia Sicula, Muratori R. I. SS (Rerum Italicarum Scriptores) vol VIII , PP. 825 - 828 . Previté - Orton : Italy , PP. 185 - 186 .

المجموعة الثانية من الفرسان وتكونت من نحو 1000 فارس جازاً من وسط فرنسا ، يصاحبهم نحو اربعين فارس من حزب الجلف تحت قيادة جي جويرا Guy Bishop of Auxerre من فلورنسا ، كما صاحب شارل اسقف اوكيسيير Guerra وكوئن اوف فيندوم Count of Vendome ، أما الاحتياطي بالمؤخرة وهم الفرنسيون الشماليون والفلمنج ، فكانوا تحت قيادة روبرت اوف فلاندرز Robert of Flanders .

وقد بدأت المعركة بهجوم المشاة المسلمين في جيش مانفريد ضد المشاة الفرنسيين ، ثم بدأ الفرسان البروفنساليون يتدخلون في المعركة فكان رد الفعل السريع أن اقتحم الفرسان الالمان المعركة دون أن تصدر إليهم الأوامر بذلك ، مما دفع شارل أن يأمر بانزال الخط الثاني من قواته إلى ميدان المعركة ، ورغم ذلك فقد كان التفوق للفرسان الالمان وسيوفهم الطويلة ، الذين كانوا يرتدون دروعاً صلبة لا تؤثر فيها خناجر الفرنسيين القصيرة (١) .

ولكن سرعان ما تدهور موقف مانفريد وجيشه وأصبح التفرق في جانب الجيش الفرنسي ، ذلك أن أحد الفرنسيين لاحظ أنه عندما يرفع الالمان أذرعهم ليهاجموا فإن ابطالهم تكون مكشوفة دون حماية لأن الدروع لا تغطي هذا الجزء ، فصاح في زملائه بأن يطعنونهم في هذا المكان فاندفع الفرنسيون في جموع متراقبة حتى أصبحوا في وسط الالمان ، ففشلوا فعالية سيوفهم الطويلة ، وأصبح التفوق لخناجر الفرنسيين القصيرة النافذة .

(١) عن أسلوب كل من الفرنسيين والالمان في القتال راجع :

Cinnamus : Historiurum , ed . Bonn , C. S. H. B. , PP. 84 - 85 .

ورغم ذلك كان لا يزال هناك فرصة لكي يكسب مانفريدي المعركة اذا أسرع بدفع الخط الثاني من فرسانه إلى ميدان المعركة ، ولكن هذا الخط الذي كان يتكون من الفرسان اللومبارديين والتوسقانيين بقيادة خاله جلفانو لانسيا ، كان عليه أن يعبر الجسر الضيق المتهالك وهو الجسر الوحيد فوق نهر فولتورنو ، فتأخر وصولهم لذلك وحينما عبروا وصدرت إليهم الاوامر بالقتال جاء ذلك بعد فوات الاوان ، خاصة بعد أن أمر شارل بازوال الخط الثالث من جنوده ليحيطوا بقوات جلفانو لانسيا ، الذي بذل جهدا خارقا للصمدود في المعركة دون طائل ، فقد أخذ جنوده في التساقط بين قتيل وجريح وأسير ، كما لاذ البعض منهم بالفرار ، أما مانفريدي نفسه فقد كان يقف مع فرسانه من حزب الجيلين بعيد عن أرض المعركة بعض الشئ فلم يستطع التدخل لإنقاذ الموقف في الوقت المناسب ، لكنه مع ذلك خلع عيشه الملكية واعطاها لصديقه تيباليتو تمويها للعدو ، وأصدر أوامره لخطه الأخير بالتحرك إلى أرض المعركة ، إلا أن ثباته من حزب الجيلين خانه معتقدين بأنه لا أمل في كسب المعركة وتركوه وانسحبوا دون قتال ، وكذلك فعل شقيقا زوجته ، وترك مانفريدي وصديقه تيباليتو مع عدد قليل من اتباعه الذين ظلوا على الواجهة ، وكان يمقرون مانفريدي ان ينجو بنفسه ويهرب لكنه رفض الفرار بل اقتحم ميدان المعركة ، وظل يقاتل مع تيباليتو ومن بقي معهما من الجنود حتى سقطا قتيلين وسط الجنود وقتل تيباليتو وهو ما زال مرتديا عيشه مانفريدي الملكية ، كما قتل معهما عدد من الأتباع وتمكن الباقيون من الفرار . في الوقت الذي كلف فيه شارل نفر من رجاله بمهمة غير انسانية وهي قتل الجرحى من جيش مانفريدي ، وهكذا في مساء يوم المعركة وهو الجمعة ٢٦ فبراير ١٢٦٦ ، كان شارل دانجو هو سيد الموقف ، وفتحت امامه أبواب الملكة ، وسار حتى دخل مدينة بنفتون ، ومن هناك أرسل رسالة إلى البابا كليمون الرابع يصف له فيها انتصاره ، كما أخبره أن مصير مانفريدي غير معلوم ، ولكن بما أنه عشر علي جواهه

^(۱) فالارجح أنه قتل

وفي يوم الأحد ٢٨ فبراير ١٢٦٦ ، جاء إلى معسكر شارل أحد الجنود يقود دابة فوقها جثة ، وأخذ الجندي يصبح " من يشتري مانفريد " ، فجأوا به أمام شارل، الذي طلب من بعض أسراء ، مثل ريتشارد كونت كاسرتا وهو شقيق زوجة مانفريد ، وجبور دانو وبيار ثابوميو لانتسيا ، أن يتحققوا من أنها جثة مانفريد بالفعل . فتعرفوا عليها ، وتوسل بعض الفرسان الفرنسين ، الذين احترموا شجاعة مانفريد في القتال ، إلى شارل أن يأمر بأن تقام لمانفريد جنازة تليق به كجندي شجاع لقي حتفه في المعركة رغم أنه كان يستطيع الفرار دون قتال ، فأجابهم شارل بأنه كان يوه ذلك ، لو لا أن مانفريد لقي حتفه وهو محروم من رحمة الكنيسة ، لكنه أمر بأن يدفن بصورة لائقه ، دون القيام بأية مراسم دينية ، ويدفن جسده في حفرة أسفل جسر نهر فولتورن ، ومر الجنود الفرنسيون أمامه لتحيته ، وكان كل جندي يصر أمامه يضم حيرا فوقه حتى تكون نصب (٢) .

(١) عن كل ما يتعلّق بمعركة بنفتو راجم المصادر التالية:

Villani : Cronica , vol II , pp. 147 - 155 .

Malaspina : Historia Sicula, pp. 825 - 830

Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire U. S. A. , vol III ,
P. 590.

Oman : Op. cit , PP. 500 - 505 .

Wolff : The Latin Empire of Constantinople , ch. v , PP. 65 - 67 , P. 78 .

(٢) لقد أشار دانتي اليجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١م)، في المطهر Purgatorio إلى قبور مانفريدي راجع:

Dante Alighieri : *Opoa* , ed . Moore and Toynbee , Fourth ed. Oxford , 1924
Purgatorio , III , PP. 124 - 132 .

وظل شارل لبعض الوقت في مدينة بنفنتو حتى استعاد جيشه نشاطه وحيويته ، على الرغم من أن المدينة تعرضت للنهب من جانب الجنود ، ولم يشع لها أنها كانت ضمن ممتلكات البابوية ، ولا تخضع للتأم الملكي ، واستدعي شارل زوجته الملكة بياتريس من روما فلحقت به ، ودخلت في احتفال مهيب مدينة نابولي التي اتخذها شارل عاصمة لملكته ، وكان ذلك في السابع من مارس 1266 م. وقد امتنى الملك شارل صهوة جواهه . أما الملكة بياتريس فكانت تجلس في محفظه من القطينة الزرقاء^(١) .

وهكذا سقط مانفريدي هومنستاوفن ضحية للغدر والخيانة من جانب الحزب الملكي ، وهو حزب الجيلين ، وانتهت معه مجد هذا العزب ، الذي كان هومنستاوفن يتحكمون إيطاليا عن طريقه ، وأصبح أعضاؤه تحت سلطة وسيطرة شارل دانجو ، ليكفروا عن خيانتهم وتقربهم ، ولم يلبثوا أن أدركوا مدى الخطأ الذي وقعوا فيه بخيانتهم لمانفريدي بعد أن قاسوا ذل الاحتلال الفرنسي .

وكانت زوجة مانفريدي هيلين اوف أبيروس وابنته منها الطفلة بياتريس ، وثلاثة أبناء ذكر غير شرعيين لمانفريدي يقيمون جميعاً في نوسيرا Lucera بين المسلمين الذين كان يثق فيهم مانفريدي ، فجاءهم نباً كارثة بنفنتو ومقتل مانفريدي هناك ، فسارع الجميع بالذهاب إلى قلعة تراناني Trani ، بأمل أن يجدوا نورقاً يعبرون به البحر الأدريatic إلى والد هيلين في أبيروس ، ولما علم موظفو البابا بذلك طاردوهم ، وتعرضوا لخيانة قائد القلعة الذي سلمهم إلى موظفي البابا فقتلتهم هي وأطفالها إلى نوسيرا Nocera وسجنت في قلعة باركو Castello dell'Parco وتوفيت هناك في عام 1271 م. وهي لم تتعد الثلاثين من عمرها ، وقد تحررت ابنتها بياتريس في

(١) لقد قدم المؤرخ المعاصر فيلاني وصفاً لوكيّر بدخول شارل وبياتريس إلى نابولي راجع : Villani : Cronica , PP. 155 - 156 .

عام ١٢٨٤ وتزوجت ماركيز سالوزو Marquis of Saluzzo . أما أبناء مانفريدي الذكور فلم يغادروا سجنهم أبدا ، وظل أحدهم على قيد الحياة حتى عام ١٣٠٩م. وسلم حاجب مانفريدي ويدعى مانفريدي ماليطا خزانته وثروته إلى الفاتح المتصر شارل دانجو^(١) .

وقد كان من نتيجة معركة بنفتتو وانتصار شارل ان فتحت له أبواب الصقليتين على مصراعيها خاصة بعد أن بدأ شارل بداية طيبة وأصدر عفو عاما عن الناس مقتنعا بأنه لا حاجة للانتقام من اتباع مانفريدي وأصدقائه ، فشجع هذا العفو أولئك الذين تركوا وطنهم فعلا على العودة إليه ، ومن بين هؤلاء طبيب بارز هو حنا بروسيدا Jhon of Procida ، الذي كان قد لازم الامبراطور فردرريك الثاني أثناء مرضه الأخير والذي عرف عنه المهارة في علاج الأمراض الخطيرة والمستعصية فتشفع له البابا كليمنت بنفسه لدى شارل^(٢) ، وسيكون بروسيرا هذا دور بارز في الأحداث السياسية التالية في صقلية كما يتضح فيما بعد .

بدأت المدن الإيطالية ترسل لشارل مدينة تلو الأخرى تعلن خضوعها ، حتى قبل أن تصلك إليها قواته ، ومن بين هذه المدن لوسيرا التي ظل المسلمين بها حتى النهاية مخلصين لمانفريدي ، أما عائلة لانسيا ، وهي عائلة والدة مانفريدي كما سبق أن ذكرنا ، فقد فكر بعض أفرادها في تنظيم المقاومة ضد شارل في الجنوب في إقليم كالابريرا Calabria ولكنهم لم يلبثوا أن فتر حماسهم وتسرب اليأس إلى نفوسهم من امكانية نجاح مقاومتهم فاقسموا في النهاية لشارل يعين الولاية والتبعية، وترك لهم من جانبه معظم أراضيهم بداية لعهد جديد وعلاقة جديدة من ثم عبرت قوات شارل واسطوله الذي كان يحارته من مارسيليا ، تحت قيادة فيليب أوف مونفورت Philip

(1) Del Giudice : La Familia del Re Manfredi , PP. 71 ff.

(2) Martine and Durand : Thesaurus novus Anecdotorum , Paris , 1717 , vol II , P. 319 .

of Montfort إلى صقلية ، فلم يجد سكان الجزيرة أية مقاومة ، كما استسلم أسطول مانفريد الذي كان لا يزال بكامل قوته واستعداداته إذ أنه لم يشترك في أية معارك بحرية ضد شارل^(١) .

وفي نهاية مارس ١٢٦٦ ، عقد اجتماع كبير في مدينة ميلان حضره نواب شارل ونواب كل المدن الإيطالية الكبيرة في حوض نهر البو Pô ، من فيرسولي Reggio في الغرب ، إلى تريفيسو Treviso في الشرق ، ومن ريجيو Rovigo ومودينا Modina جنوب نهر البو أيضا ، وأعلن الجميع ولاعهم للبابوية واتمامهم لحزب الجلف ، وأعلن حاكم كريمونا Cremona ، وبياكنزا Piacenza وهو من حزب الجبلين ، في يونيو ١٢٦٦ م. خصوصه لشارل واضطر للانسحاب إلى ضياعه . وباستثناء مدینتی فیرونا Verona ، وبافایا Pavia ، اللتين ظلتا مستقلتين ، فإن باقي إقليم لومبارديا في شمال إيطاليا أصبح في يد شارل وحليفه البابا^(٢) .

وقد حدث نفس الشئ في توسكانيا Tuscany ، حيث كانت مدينة فلورنسا Florence مركز لحزب الجبلين وجري في خريف عام ١٢٦٦ ، إعادة تشكيل هذا الحزب بها واتخذ أعضاؤه رئيسا لهم هو جي نوفللو Guy Novello الذي دخل مدينة فلورنسا متتصرا ، لكن الأمالى طردوه بعد شهر واحد ، فاستدعى البابا شارل دانجو لقرار الأمور في توسكانيا ، وفي ١٨ أبريل ١٢٦٦ دخل شارل فلورنسا ، فبادر أعضاء حزب الجبلين للانسحاب منها دون قتال ، ولم

(1) Jordan : L'Allemagne et l'Italie aux XII^e et XIII^e Siècles , dans Gloty , Histoire Générale , Histoire du Moyen Age , vol IV , Paris , 1909 , PP> 366 - 367.

Léonard : Les Angevins de Naples , P. 60 .

(2) Léonard : Op. cit , P. 372 .

Jordan : Op. cit , PP. 375 - 377 .

Previté - Orton : Italy , P. 187 .

يعربوا إليها بعد ذلك . وحذت مدينة لوكا Lucca حذو فلورنسا واختارت المدينتان شارل ليكون حاكماً لها لمدة سبع سنوات ، كذلك دانت له بالولاية كل من براتو Prato وبيسوتوا Pistoia ، إلى الشمال من فلورنسا ، ولم تقادمه سوى مدينتي بيزا Piza ، وسبيينا Siena فأخذ شارل يستعد لسحقهما ، لكن البابا استدعاه لمقابلته في فيتربيو Viterbo ، وهناك وعد شارل البابا أن يقصر حكمه في توسكانيا على ثلاثة سنوات فقط ، وأضطر شارل إلى العودة إلى توسكانيا في نهاية يونيو ١٢٦٧ لمحاصرة الحصن المنبع بوجيبونسي Poggibonci ، الذي يقع إلى الشمال من سبيينا ، واستمر الحصار لمدة خمسة أشهر أبدت خلالها حامية الحصن مقاومة عنيفة ، واستمرت هذه المقاومة حتى ٣٠ نوفمبر ١٢٦٧ حين أخذه شارل عنوة . والجدير بالذكر أنه أثناء حصار شارل لهذا الحصن توفيت زوجته الملكة بياتريس في نوصيرا Nocera في يوليو ١٢٦٧ ولم تهناً بلقبها كملكة سوى أقل من عام وحمل جسمانها إلى أكس Aix - احدى مدن بروفانس - حيث دفنت هناك ^(١) .

وهكذا بدا للوهلة الأولى وكأن أهداف البابوية قد تحققت تماماً ، لدرجة أن البابا كليمينت كتب إلى نائبه في إنجلترا في ٦ مايو ١٢٦٦ يقول : " إن السلام الذي يسود في جميع أنحاء المملكة إنما يرجع إلى قوة ابننا الحبيب شارل ، الذي يمتلك في قبضته رفات هذا الرجل الفاسق (يعني مانفريدي) وزوجته وابنائه وثروته ^(٢) .

لكن أثبتت الأحداث التالية أن البابا كان واهماً إلى حد كبير ، وذلك يرجع إلى طموحات شارل دانجو التي كانت لا تقف عند حد ، ويؤكده ذلك العبارة التي قالها شارل بعد انتصاره في معركة بونفنتو ، حين جاءه أحد رجاله مهنتاً له على انتصاره

(1) Leonard : Op. cit , PP. 372 - 375 .

(2) Martine and Durand : Thesaurus nivus Anecdotorum , Paris , 1717 , vol II , P. 319 .

فرد عليه شارل قائلًا : « على أي شئ تهنتي ، ان الرجل الشجاع لا يكفيه العالم باسره »^(١) . وقد وضع شارل سياسة بحرية شاملة تشبه سياسة ملوك النورمان التي هدفت إلى غزو بلاد البلقان وامتلاك القسطنطينية ذاتها ، والسيطرة على تجارة الشرق ، وتسد أيضًا احتياجات شارل المالية الملحقة ، فقد كان عليه أن يدفع أجور جنده ، ويسدد ديونه ، وأهمها الجزية السنوية الكبيرة التي كان عليه أن يدفعها للبابوية ، ومن ثم انتشر جباة الضرائب Collectae على عجل لحصر المصادر المالية للبلاد والتتأكد من انتظام دفع الضرائب التي كانت في حقيقة الأمر ثقيلة الوطأة على الأهالي في الوقت الذي سيطر فيه أصحاب البنوك والتجار على حركة التجارة التي كانت من قبل في أيدي الأهالي ، ولهذه الأسباب شعر الأهالي بالكرامة الشديدة تجاه شارل الذي كان يتصف بالقسوة والصرامة والاحتياجات عن الشعب ، إذ حكم شعبه بواسطة موظفيه الفرنسيين الذين نظر إليهم الأهالي على أنهم غرباء من جهة ، ظالمون ومغفرون من جهة أخرى ، وأخذ الأهالي يقارنون بين شارل وموظفيه ، وبين آل هونستاوفن الذين تمعنا في ظلهم في صقلية وإيطاليا ، بكثير من الرعاية ونعموا في عهدهم بكثير من المحبة والعطف وإذا كانوا قد غضبوا على ملوك هذه الأسرة بسبب جدالهم المستمر مع الكنيسة وخاصة فردريك الثاني ومن بعده ابنه مانفريد ، الا انهم عادوا فذكروهم بالخير بعد المقارنة بشارل دانجو الورع الممثل بالحيوية والنشاط ^(٢) .

ولم يمض وقت طويلا حتى وصلت الشكاوى العديدة إلى البابا كليمون الرابع ، الذي كان لديه من الأسباب ما يجعله يغضب على شارل ، فقد كان البابا يتمنى أن يحكم مملكة الصقليتين بعد مانفريد عميل للبابوية موالي لها يشعر بالامتنان والتبعية

(1) Previté - Orton · Italy , P. 187 .

(2) Trifone R. · La Legislazione Angioina , Naples , 1921 , P. 36 .

Previté - Orton · Italy , PP. 186 - 187

للبابا ، إلا أن شارل رغم نصائح البابا المستمرة له لم يمتنع ، وأندل البابا نهب جند شارل لمدينة بنفعته التابعة للبابوية كما سبق أن ذكرنا ، وأدرك أن شارل يقصو علي الإيطاليين الذين خضعوا له ، وهو في نفس الوقت غير كريم في مكافأاته لخلفائه المخلصين من رجال الكنيسة ، وأثار التعسّف في جمع الضرائب بالذات قلق البابا ، رغم أن شارل أُعفي رجال الدين من دفعها ، وكان من رأي البابا كليمانت أن يجمع شارل الأساقفة والبارونات والرجال البارزين في المملكة ، ويخبرهم باحتياجاته المالية ، ويترکهم بعد ذلك يتبرّون ما الذي يجب عليه اتباعه . وفي موجة الغضب التي اجتاحت البابا كليمانت ، راح ينتقد شارل من حيث إدارته لشئون المملكة ، ووصفه بأنه متكبر وجاهد للنعم ، وديمية في يد موظفيه ، وأنه محاط بحاشية سيئة تتسم بالليل لغوضي ، وفي النهاية أرضع البابا بأن " لا أحد يرى شارل أو يسمعه ، لأنه غير متواضع وغير محبوب من الشعب " (١) .

وهكذا فقد كان لدى البابا من الأسباب ما يبرر غضبه على شارل ، ولهذا أخذ البابا يلح على شارل أن يتنازل عن منصب سناتور روما ، استنادا إلى المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين في يونيو ١٢٦٣ م ، والتي حرمّت على شارل تقلد أي منصب في إيطاليا ، فاستجاب له شارل وفي يونيو ١٢٦٧ تم تعيين سناتور لروما ، هو اللون هنري القشتالي Don Henry of Castile وهو الأخ الأصغر للملك ألفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢ - ١٢٨٤ م) ، وكان مغامرا ثريا ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية ، ومن أشد المؤيدين لشارل (٢) ، وبمجرد أن تولى منصبه ، أظهر عداء وكراميته للبابا ولشارل ولحزب الجلف ، وانتهت به الأمر إلى الانضمام لحزب الجيلين المؤيد للهونستاوفن ، بل وحارب جنبا إلى جنب مع كونراديين ضد شارل

(1) Bochmer J. : Regesta Imperii , ed . Ficker and winkelmann , innsbruck 1881 - 1901 , vol V , PP. 1484 , 1488 , 1490 , 1493 .

(2) Previté - Orton : Italy , P. 187 .

والبابا على حد سواء ، كما نري فيما بعد .

وعلى الرغم من غضب البابا على شارل وانتقاد تصرفاته علنا ، الا ان الاحداث التالية أجبرته على التمسك بشارل ، كما أجبرته علي أن يغفر له كل تصرف أغضبه منه ، وأصبح البابا يتوقع لعودة شارل إلى جنوب ايطاليا . بسبب ظهور خطر جسيم ضد البابا وشارل وايطاليا كلها شماليًا وجنوبيًا وصقلية في آن واحد ، وتمثل هذا الخطر في شخص كونرادين الوريث الشرعي للهohenstaufen ، الذي خرج في حملة عسكرية من المانيا متوجهًا إلى ايطاليا لاسترداد حقه المقتضب في عرش الصقليتين .

كان كونرادين في ذلك الوقت في الخامسة عشرة من عمره وكان مقينا في بافاريا حيث أملاك عائلة والدته كما سبق أن ذكرنا ، وكان شقيقاً والدته وهما لويس وهنري Henry of Bavaria يعنيان بمصالحه السياسية في أقليم سوابيا Swabia ، الذي ظل ملكاً لعائلة hohenstaufen في المانيا ، واتسم كونرادين بالذكاء والتضوّج المبكر ، كما كان طموحاً جسورة وسيماً ، ولديه احساس عميق بجنوده الملكية ، علي أن والدته لم تشجع طموحاته ، خوفاً على حياته من مغامرات غير مضمونة النتائج ، لكن ابن عمّه وصديقه المقرب اليه والمترافق معه في السن وهو فريدريك اوف بادن Fredrick of Baden ، الوريث الشرعي لتوحيد النمسا (التي آلت اليه عن طريق والدته) . كان مؤيضاً ومسانداً له في كل خططه ^(١) .

وقد سبق ان نقش موضوع حقوق كونرادين في الصقليتين وكان رأي

(1) Hampe K. : Geschichte Konradins Von Hohenstaufan , innsbruck , 1894 ,
PP. 21 - 41 .

ومن فريدريك اوف بادن راجع نفس المرجع ، ص ١٧٦ .

البابوية أن كونرادين رغم أنه ينافس عمه مانفريد إلا أن كلاهما من عائلة الهرهنستاوفن البغيضة التي اخضتها البابوي بالكراهية واللعنة، أما ملك فرنسا لويس التاسع فقد كان من رأيه أن حقوق كونرادين لا يجب أن يتم تجاهلها تماماً، أما أنصار الهرهنستاوفن في إيطاليا من حزب الجيلين فقد بدأوا يتوجهون بتذكيرهم نحو كونرادين، بعد معركة بنفينتو وقتل مانفريد وبعد ما عانه من الحكم الفرنسي، وقد فر بعضهم كما فر نفر من عائلة لانسيا، إلى كونرادين في بافاريا، وقاموا بتحريضه على الانتقام لقتل عمه مانفريد والمطالبة بحقه في عرش الصقليتين. وفي نفس الوقت عرضوا على كونرادين خطة قوامها السير إلى توسكانيا، على أن يقوم كونراد كابيس Conrad Capece الذي كان ثانياً لمانفريد في صقلية - وهو من حزب الجيلين الإيطالي - بالهجوم على صقلية مستخدماً مساعدة أمير تونس⁽¹⁾.

ومن ثم أرسل كونرادين رسائل إلى أنصاره في إيطاليا يستحثهم على اعداد أنفسهم لمساندته، وحينما اطمأن إلى وجود الكثير من مؤلاء الانصار، حضر جلسة المجلس التشريعي في أوجسبurg Augsburg في أكتوبر ١٢٦٦، حيث أعلن كونرادين أنه ذاهب في حملة إلى إيطاليا للمطالبة بحقه الشرعي، وطلب من أصدقائه وداعياء المبادرة بمساعدته، فوافق المجلس على مطالب كونرادين وقد أرسال الحملة إلى إيطاليا في صيف عام ١٢٦٧ م. من أجل استرداد حق كونرادين في عرش الصقليتين⁽²⁾.

(1) Hampe Op. cit P 24

Previté Orton Italy , P 187

(2) Hampe Op. cit P 95 99

علم البابا كليمينت بقرار المعارضين إلى بافاريا وطموحات الأمير الصغير من عائلة الهونستاوfen واستعداداته لغزو إيطاليا ، فاصدر في ١٨ سبتمبر ١٢٦٦ م قرار الحرمان ضد كل شخص يوافق على اختيار كونرادين لعرش صقلية أو يعمل من أجل ذلك وعلى كل شخص يصحبه في حملته علي إيطاليا . وفي نوفمبر من نفس العام أصدر البابا مرسوما بقرار الحرمان وبابحة الاستيلاء علي ممتلكات من يؤيد سيادة كونرادين علي صقلية أو يستقبل ممثلي عنه^(١) .

وبناء علي أوامر كونراد ، غادر كونراد كابيس تونس مع أنصاره الذين تجمعوا هناك ، بعد أن أدمهم أمير تونس المسلم بالأسلحة والذخائر ، فعادوا إلى صقلية حيث اشعلوا نيران الثورة بها ضد حكم شارل دانجو ، وأصبحت صقلية كلها في يد الثوار فيما عدا مدينة بالرمو ومسينا اللتين ظلتا تحت سيطرة نائب شارل ، كذلك فان مسلمي لوسيرو اشعلوا الثورة التي اتسعت لتشمل كالابريا ، غير أن شارل كان ما يزال في توسكانيا ، وما لبث حصن Poggibonsi أن سقط في يديه في نهاية نوفمبر ١٢٦٧ م كما استولى علي فولتيرا Volterra ليعزل سيبينا Siena ، وفي يناير ١٢٦٨ م اتجه ضد بيزا Piza واستولى عليها وأخرج ميناعها ، كما خرب أسوارها ، وقطع تجارتها البحرية فترة من الزمن . وفي مارس ١٢٦٨ استمع إلى نداءات البابا كليمينت وسار من فلورنسا جنوبا ، ليزور كليمينت في مقره في فيتروبو ، وتسلم منه مرسوما أصبح شارل بمقتضاه نائباً أمبراطورياً للمبارديا ، وفي طريق عودته إلى مملكته اتخذ اجراءات ضد المسلمين الثائرين في لوسيرو ، وحاول جاهداً إخضاعهم قبل قدمو كونرادين ، ولكن جهوده ذهبت هباء ولم يفلح في اجبارهم

(1) Hampe : Op. cit , P. 99 - 100 .

علي الاستسلام^(١).

وفي منتصف سبتمبر ١٢٦٧ ، غادر كونرادين بافاريا مصطحبًا حوالي أربعة ألف فارس ألماني ، إذ لم يكن لديه المال الكافي لاستئجار عدد كبير من المرتزقة ، كما كان بصحبته الكثير من الإيطاليين من حزب الجبلين المؤيد للهohenstaufen ، وكان بحاشيته الكثير من الصقليين ، وقبل أن يغادر ألمانيا اذاع بياناً رسمياً ، أعلن فيه حقه الشرعي في ميراث الهohenstaufen ، كما أعلن أن مانفريد كان مفترضًا لحقه الشرعي في حكم الصقليتين^(٢) .

تحرك جيش كونرادين ببطء عبر مقاطعة تيرول Tyrol في جنوب ألمانيا على امتداد مرات جبال الألب ، وفي ٢١ أكتوبر ١٢٦٧ وصل إلى فيرونا على الساحل الشمالي الشرقي لإيطاليا ، وأحد المراكز الهامة لجتماع حزب الجبلين ، وقد بقي بها كونرادين لمدة ثلاثة شهور ، ولم توضح المصادر السبب في بقاء كونرادين كل هذه المدة في فيرونا ، وربما أراد أن يعطي فسحة من الوقت لاعضاء حزب الجبلين في إيطاليا للانضمام إليه ، أو أنه كان يأمل أن تدفع ثورة صقلية ومسلمي لوسيرا شارل لكي يترك توسكانيا ويتجه جنوباً ، وبذلك تتاح لكونرادين فرصة الاستيلاء على إيطاليا مدينة ثلو الأخرى ، لكن شارل خيب ظنه ولم تلتح ثورة صقلية ولا نداءات البابا في حثه على ترك توسكانيا^(٣) .

وقد أضر هذا التأخير في فيرونا بكونرادين أكثر مما أفاده ، ذلك أن أهالي

(1) Jordan : Op. cit , PP 386 - 390 .

Leonard : Op. cit , PP. 65 - 66 .

Hampe : Op. cit , PP. 189 - 195 .

(2) Hampe : Op. cit , PP. 346 - 350 .

(3) Malaspina : Op. cit , PP. 834 - 836 .

Jordan : Op. cit , P. 386 - 386

فieronنا لم يتوقعوا أن يستضيفوا جيشاً بهذا الحجم لوقت طويل ، ولم يكن لديهم من المون والأغذية ما يقدمونه لهذا الجيش الكبير لمدة أخرى ، في الوقت الذي بدأت فيه قواته تشعر بالضجر والملل ، كما أن بوق بافاريا رفض أن يصحب كونرادين لأبعد من ذلك وعاد إلى وطنه في المانيا ، وهذا حنوه الكثير من اللورادات الألمان الأقل منه مرتبة ، وبدأ مسبر حزب الجبلين في Fieronنا ينفذ ، فاضطر كونرادين للتحرك ومجادرة Fieronنا في ١٧ يناير ١٢٦٨ ، وبعد ثلاثة أيام وصل إلى المركز الثاني لجتماع الجبلين في ايطاليا وهو مدينة بافايا Pavaia ، في وسط لمبارديا ، ومكث بها عدة أسابيع ، ثم وصل إلى سافونا Savona على الساحل الشمالي الغربي لايطاليا ، ومن هناك أبحر في نونق إلى بيزا التي وصلها في ٧ أبريل ١٢٦٨ ، وهناك استقبل استقبلاً ملكياً حافلاً ، أما جيشه فقد واصل السير عبر الطريق البري تحت قيادة فردرريك اوف بادن حتى وصلوا إلى بيزا دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وفي بيزا قدم الجبلينيون لكونرادين الكثير من الجنود والكثير من الأموال ، ومن جانبه منح كونرادين بيزا كل الحقوق التي كانت لها فيما سبق في مملكة الصقليتين ، فمنها مدن تراباني Trapani في الشمال الغربي لصقلية ، ، مارسالا Marsala وسالرنو Salerno في الجنوب الغربي لايطاليا ، وجزيرة مالطا .

وأثناء ذلك كان شارل دانجو يحاول قمع الثورات المحلية التي قامت ضد حكمه في ايطاليا قبل أن يصل إليها كونرادين فترك اقليم توسكانيا واتجه إلى لوسيرا لأخذ ملوك المسلمين بها خذه ، فاتاح ذلك لكونرادين فرصة ليقوم بفتحاته في توسكانيا ، فحاول الهجوم على لوكا Lucca ولكن نائب شارل في توسكانيا تصدى له ، فسار كونرادين علي رأس جيشه إلى حصن بوججبونيسي Poggibonsi وهو الحصن الذي ذاق الأمرين من حصار شارل دانجو مدة خمسة أشهر والذي أخذه شارل عنوة ، كما سبقت الاشارة ، فكان من الطبيعي أن يشعر

سكن هذا الحصن بالكرامة الشديدة لشارل ويستقبلوا كونرادين استقبلا حافلا حيث قدموا له مفتاح الحصن ، وفي ٢٥ يونيو ١٢٦٨ وصل كونرادين إلى سينا Siena ويفي بها لمدة عشرة أيام ، وكافأ المدينة على ولائها بمنحها الحق في جبابة الفرائض واقرار العدالة في كل أنحاء المنطقة ، ومنها اتجه كونرادين بجيشه متذذا الطريق القديم المعتم طريق كاسيا Via Cassia عازما على التوجه إلى روما ذاتها . وأثناء سيرهم ، مرروا تحت أسوار مدينة فيتربو Viterbo ، شمال روما حيث مقر البابا كليمنت ، الذي شاهدتهم من نافذة علوية في قصره أثناء عبورهم فراوده الأمل في أن يكن الحمل سائرا إلى المذبحة^(١) .

وفي يوليو ١٢٦٨ ، وصل كونرادين إلى روما ، وسجل كاتب الحلويات المعاصر سابا ملاسبيينا Saba Malaspina ، الذي كان يعمل في البلاط البابوي ، وصفها تفصيلا لاستقبال أهالي روما لكونرادين ، هذا الاستقبال العافل ، الذي لم يسبق مدينة بابوية أن استقبلت به عدوا للكنيسة ، فقد خرجت الجموع وعلى رأسها سناتور روما هنري القشتالي ، الذي كان قد قلب ظهر المجن للبابا وأحرز الجلف وانضم إلى حزب الجبلين ، خرج الجميع لاستقباله وهم ينشدون تراتيل تمدحه وتمجد عائلته وتلقي بالزهور أمامه في حماس منقطع النظير ، وزينت الطرقات بالزينة ، وارتدي الجميع الملابس الزاهية الجميلة وكانتهم في يوم عيد ، وأقيمت الألعاب في ساحة مارتيوس Martius ، وسار المراكب تقدمها الأضواء ليلا ، واستمرت هذه الاحتفالات وتواجد أعضاء حزب الجبلين الإيطاليين علي روما للاشتراك في هذه الاحتفالات ، كما أخذ السناتور هنري القشتالي ، يؤكد لكونرادين أخلاصه

(١) لقد أعطي المؤرخ الألماني هامب وصفا تفصيلا لخط سير حملة كونرادين علي إيطاليا ،
راجع:

Hampc · Geschichte Konradins Von Hohenstaufan , PP 21 - 41

الذى لن يتغير ^(١) .

وان دلت هذه الاحتفالات على شئ فانما تدل على مدى حب وتقدير الشعب الايطالي لعائلة الوهنستاوفن ، وتمسکهم بها ، خاصة بعد أن ذاقوا مرارة حكم الفرنسيين وتعاليم وغطرستهم ، وقد وصلت انباء هذا الاستقبال الحافل لكونرادين بروما ، إلى البابا كليمنت في مقره في فيتيرو ، فتألم لذلك أشد الألم ولم يغفر البابا أو خلافه لروما هذا الموقف لسنوات طويلة ، وأنهى باللائمة علي هنري القشتالي ، وأقسم البابا ألا يسمح مرة أخرى ، باختيار أجنبي سناتور لروما .

وظل كونرادين بروما مدة ثلاثة أسابيع ، ثم غادرها وهو مفعم بالأمل في فتح مدن المملكة واسترداد ميراثه من مقتنييه خاصة بعد هذا الاستقبال الرائع بروما ، الذي أثيّج صدره ، وبعد أن انضم إلى جيشه نحو ألفين من الفرسان المدربين ، وبذلك بلغ تعداد جيشه ما يقرب من الستة آلاف مقاتل .

عزم كونرادين علي التوجه إلى إقليم أبوليا ، في الجنوب الشرقي لإيطاليا ، حيث كانت أملاك مؤيديه من عائلة لانسيبا وحين علم شارل بذلك وهو محاصر لمدينة لانسيرا حيث كانت ثورة المسلمين لا تزال قائمة ، رفع شارل الحصار وصمم علي أن يقطع الطريق علي كونرادين ، فسار بجيشه حتى وصل إلى تل اوفيندولي Ovindoli ، وكان هذا التل هو الطريق الوحيد المؤصل إلى أبوليا ، ولم يكن بمقدور كونرادين أن يصل إلى أبوليا دون أن يمر عبر هذا التل ، لذلك غير كونرادين اتجاهه بعض الشئ حتى لا يصطدم بقوات شارل ووصل إلى كارسولي carsoli ثم اتخذ طريق فاليريا Via Valeria إلى الجنوب الشرقي ، وعبر إلى تاجلية كونزو Tagliacozzo وكان كونرادين يعلم أن شارل ليس بعيدا عنه ، لذلك لم يعطه

(1) Malaspina S. : Historia Sicula , PP. 842 - 844 .

الفرصة ليفاجئه في وادي ضيق ، بل تحرك شمالاً ماراً بالتلل ثم نزل إلى السهل حيث تستطيع قواته أن تخوض معركة حاسمة وهي في وضع مناسب يسمح للخيالة الثقيلة من الألمان ان تناور بسهولة وتتحرك في يسر لتحرز نتائج طيبة ، وأقام كونرادين معسكره عند سكوركولا Scurcola ، على الجانب الغربي لنهر صغير يسمى سالتو Salto ، علي بعد خمسة أميال من تاجليا كوزو ، وكان ذلك في ٢٢ أغسطس ١٢٦٨م. ، وبعد ساعات قليلة وصل شارل دانجو علي رأس جيشه وعسكروا علي الجانب الشرقي لنهر سالتو وبدأت المعركة التي عرفت في التاريخ باسم معركة تاجليا كوزو Tagliacozzo ، في صباح يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١٢٦٨ ، ومثل معركة بنفتون من قبل ، كان كل جيش ينقسم إلى ثلاثة أقسام ، والفيالق الأولى من جيش كونرادين كانت تقف علي الشاطئ الغربي لنهر سالتو يقودها هنري القشتالي سناتور روما ، وقوامها الفرسان الإسبان ، وقوات من حزب الجبلين من روما وكمبانيا Campagna ، وخلفهم وفدت الفيالق من حزب الجبلين من لمبارديا وتوسكانيا ومن الفارين من مملكة شارل دانجو ، وكان بينهم عدد قليل من الفرسان الألماني نوي الأسلحة الثقيلة . أما باقي القوات الألمانية فقد وضعت في الفيالق الاحتياطية تحت قيادة كونرادين وابن عمه وصديقه فردرريك اوف بادن .

أما جيش شارل دانجو فقد كان أقل عدداً حيث وصل تعداده إلى نحو خمسة ألف فارس ، ولكنه كان يتكون من جنود محكين حاربوا باستمرار مع شارل خلال العامين الأخيرين ، وكانوا من الرجال الذين يعرفهم شارل ويثق بهم ، وتكون الخط الأول من فيالقه من الإيطاليين من حزب الجلف والقوات البروفنسالية ، وانتشر هؤلاء علي الجانب الشرقي لنهر سالتو ، أما الخط الثاني فكان يتكون من العدد الأكبر من قوات شارل الفرنسية تحت قيادة الماريشال هنري اوف كوسانسز Henry of Counsances ولجاً شارل إلي خداع كونرادين وقواته ، فاعطي للماريشال هنري

عبايات ليرتديةها وسلمه العلم الملكي ليحمله حامل العلم الذي يقف عادة بالقرب من القائد . ونظراً لأنه جرت العادة على أن قائد الجيش لا بد وأن يكون على رأس الفيالق الاحتياطية ، فقد اعتقد كونرادين أن تلك هي الفيالق الاحتياطية وقادتها شارل نفسه . في الوقت الذي كان فيه الاحتياطي الحقيقي بقيادة شارل ويبلغ تعداده حوالي الألف من أفضل الفرسان على بعد حوالي الميل خلف جيشهم يختبئون من العدو وراء أحد التلال ، وكان يصحب شارل جندي مخضرم عاد لتوه من حملة مسلية في الشرق ، ويشغل منصب الحاجب الملكي في فرنسا ، وهو إيرار أوف سانت فاليري . Erar of Saint - Valéry

وهكذا كان يفصل بين الجيشين نهر سالتو الصغير الذي كان ضحلاً في فصل الصيف ، وفرقه جسر يصل بين شاطئيه . وفي صباح يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١٢٦٨ تحركت فيالق هنري القشتالي نحو الجسر بينما كانت فيالق شارل قد عبرت الجسر ووقفت في انتظارهم هناك وبدأت المعركة واشتعل القتال بين الطرفين ، وبدا التفوق في جانب جيش كونرادين وتساقطت الفيالق الانجوية وتعرضوا لمذابح رهيبة ، واعتقد الألمان أن هنري أوف كونسانز هو الملك شارل فهاجموه وذبحوه واستولوا على العلم الملكي ، وحين رأى الفرسان الانجوبيون ذلك لأنوا بالفرار ، فاقتفي أثرهم هنري القشتالي ومعه جلفانو لانسيا ، وحين جاء كونرادين وفرسانه من الاحتياطي لتجهيز الضربة القاضية للجيش الانجوي ، بدا ذلك غير ضروري ، نظراً لعدم وجود جنود تابعين لجيش شارل في ساحة المعركة ، إذ كان شارل دانجو مروراً في مخبئه خلف التلال ، وهو يرى هذه الكارثة التي حلّت برجاه .

علي أن الخطأ الذي ارتكبه جنود كونرادين وتسبيب في هزيمته بعد ذلك ، هو انشغالهم في نهب المعسكر الانجوي واشتراك في ذلك الجنود الإيطاليون والألمان على

السواء معتقدين ان جيش شارل قد هزم ولاذ بالفرار وخلا الجو لهم للاستيلاء على ما يحويه المعسكر من المون والذخائر ، ولم يدر بخلدتهم ان شارل ما زال مختبئا خلف التلال بفيالقة الاحتياطية التي لم تخض المعركة بعد ، وقد أخذ ايرار اوف سانت فاليري يبحث شارل ويشجعه على النزول إلى أرض المعركة للاشتباك مع كونرادين والفرسان القليلين المتبقين حوله بعد أن شغل باقي الجيش في مطاردة فيالق شارل الهاربة من ناحية وفي نهب معسكته من ناحية أخرى فما لبث كونرادين وفريديريك اوف بادن أن فوجئا بهجوم فيالق شارل ، وبعد صراع عنيف وقتل مرير ، اضطر كونرادين إلى ترك أرض المعركة والفرار استجابة لنصيحة قادته ، ففر هو وفريديريك اوف بادن وحارسه الخاص واتخروا طريقهم إلى روما ، أما باقي الفرسان من جيش كونرادين الذين ظلوا يقاتلون شارل وجندوه ، فقد ذبحوا واستولى شارل على راية الهومنستاون التي يزينها النسر ، ولما رأى الجنود الالمان والابطاليون الذين ينهبون المعسكر ذلك لأنوا بالفرار ، أما هنري القشتالي وجلافانو لانسيا فقد ظلا يطاردان جنود شارل الهاربين حتى أصبحوا خارج الوادي ووصلوا إلى طريق ابوليا ، فجاءتمنهم الانتباء هناك بما حدث لجيش كونرادين ، فعادوا إلى أرض المعركة على رأس فيالقهما وكانت لا تزال أكثر عددا من فيالق شارل ، غير أنها كانت تعاني من الإجهاد بعد يوم طويل من القتال والمطاردة ، وهم يرتدون الدروع الثقيلة ويقايسون من حرارة الصيف ، على عكس فيالق شارل التي ادخلت قوتها طوال اليوم ولم تنزل إلى أرض المعركة الا مؤخرا فضلا عن أنها كانت ترتدي دروعا منته رخيصة فتقابل الفريقان يدا بيد وانتهي القتال بفوز شارل فزوا تاما^(١).

(١) عن كل ما يتعلق بتفاصيل معركة تاجليا كوند راجع ما يلى :

- Villani : Cronica , vol II , PP. 181 - 189 .
 Malaspina : Historia Sicula , vol III , PP. 845 - 848
 Hamps : OP. cit , PP. 288 - 295 .
 Miller : The Latins in the levant , PP. 128 - 129
 Oman : Op. cit , vol I , PP. 505 - 515

وكعادة شارل دانجو بعد كل معركة ، كتب إلى البابا كليمينت ووصف له المعركة ومدى الجهد الكبير الذي بذله هو ورجاله في هذه المعركة ، واختتم رسالته إليه قائلاً :
" لقد قتلنا من الأعداء في هذه المعركة أكثر مما قتلنا منهم في معركة بونفنتو ، ونحن نكتب لك هذه الرسالة بعد المعركة مباشرة ، ولا نستطيع أن نؤكد الآن ما إذا كان كونرادين والسناتور هنري قد قتلا أم أنها لازما بالغفار ، لكن المؤكد أن فرس السناتور هنري قد جري أخذه فلا بد هنري نفسه قد فر على قدميه " . (١)

والواقع أن معظم قادة جيش كونرادين كانوا لا يزالون على قيد الحياة ، بينما قبض على السناتور هنري القشتالي أثناء فراره ، وظل بالأسر لسنوات طويلة ، ثم أفرج عنه في ١٢٩٣ ، في عهد شارل الثاني أوف انجو ، فعاد إلى وطنه في إسبانيا (٢) .

أما كونرادين وأبن عمه وصديقه الوفي فرديريك أوف بادن فقد اتخذوا طريقهما إلى روما ، وكان بعض الفرسان قد انضموا إليهم فوصل عددهم إلى نحو خمسين فارساً ، وفي ٢٨ أغسطس وصلوا إلى روما ، وفيها نائب السناتور هنري ويدعى جي مونتفيلتو Guy of Montefelro وهو لورد أربينو Lord Urbino وينتمي إلى حزب الجيلين وكان قد سمع بتفاصيل المعركة وما انتهت إليه من هزيمة كونرادين ، لذلك انقلب على كونرادين ، وحزب الجيلين بكامله ، وانضم إلى الحزب المنافس والمولى للبابوية وهو حزب الجلف وسمح لرجاله بدخول روما ، في الوقت الذي رفض دخول كونرادين ورجاله وأغلق بوابات الكابيتول في وجههم ، فرأى

(1) Villani : Op. cit , vol II , PP. 190 .

Malaspina : Op. cit , vol III , P. 849 .

(2) Wolff : Mortgage and Redemption of an Emperor , Son : Castile and the Latin Empire of Constantinople , in Studies in the Latin Empire of Constantinople , London 1976 , Ch. V , P. 78 .

كونرادين انه من الأفضل عدم دخول روما ، فاتخذ ورجاله طريق فاليريا Saracinesco Via Valeria التقا بجلانو لانسيا الذي انضم اليهم ، فعزم الجميع على التوجه إلى ابوليا والانضمام للثوار هناك وعائلة لانسيا ، وبينوان شارل توقع منهم ذلك ، فوضع عدداً من رجاله يراقبون الطريق إلى الشرق ، وحين ادرك كونرادين وصحابه ذلك غيروا خططهم واتجهوا جـCampagna ، مارين بكمانا فوصلوا إلى ميناء صغير في استيوار Astura في مستنقعات بونتين Pontine marshes للمنطقة وهو اللورد هنا فرانجيبان Jhon Frangipan ما أن علم أن ثمة غرياء غير معروفين قد نزلوا بالمنطقة حتى أرسل من قبض عليهم واحضرهم ، فاكتشف شخصياتهم فقام بسجنهما في قلعة من قلاعه ، وبعد أيام قليلة علم شارل بذلك فأرسل أمير البحر روبرت اوف لافينا Robert of Lavena ومعه الكاردينال جورдан اوف تراسينا Jordan of Terracina فطلبوا من هنا فراتجيبان باسم الملك شارل والبابا كليمنت ان يسلمهما السجناء ، فاستجاب لهما ، ونقل السجناء أولاً إلى بالسترينا Palestrina ، وهناك تم العفو عن جلانو لانسيا وأحد ابنائه وعدد من النبلاء الإيطاليين من حزب الجيلين ، والرجح ان شارل عفي عنهم حتى يكسب ود عائلة لانسيا في ابوليا لتكلف عن اثارة المتابع في وجهه والتحريض على الثورة ضده ، ونفس الشئ بالنسبة لحزب الجيلين ، أما كونرادين وفردرريك اوف بادن وعدد من اتباعهما فقد نقلوا إلى نابولي ومنها إلى قلعة في جزيرة اوفو Castello dell'Uovo (١) .

(1) Malaspina Historia Sicula , vol III , PP. 848 - 850 .

وكان شارل دانجو مقتعا تماما بان كونرادين يجب أن يقتل ، لانه لا يمكن ان يشعر بالأمان على عرشه ، طالما ان هناك أمير من الهونستاوفن على قيد الحياة لكن شارل كان يريد أن يكون حكمه علي كونرادين قانونيا ، فالتقاليد كانت تحرم قتل أسير الحرب ، وخاصة من الشخصيات البارزة والأمراء ، فاما خالف شارل هذه التقاليد فيجب أن يكون لديه المبرر القانوني لذلك ، فأمر المحامين باعداد عريضة الاتهام ضد كونرادين ، وأيقن قضاة شارل المطلوب منهم ، وبعد محاكمة صورية هزلية في نابولي صدر حكمهم بان كونرادين مذنب بتهمتي التمرد والخيانة ، وكذلك فرديريك اوف بادن وريث عرش النمسا ، الذي كانت كل جريمة أنه ظل مخلصا لكونرادين حتى النهاية ، ولابد ان شارل اعتقاد أنه اذا ظل فرديريك اوف بادن علي قيد الحياة وقتل كونرادين فقط ، فمن المحتمل ان يطالب فرديريك بعد ذلك بحقه الشرعي في عرش الصقليتين حيث انه ابن عم كونرادين أي من نفس عائلة الهونستاوفن.

ونصب مقصلة في معسكر ماريسينو Campo Maricino في نابولي في الموقع الذي يعرف حاليا باسم بيازا دل ماركاتو Piazza del Marcato ، وفي ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨م. جرى قطع رأس كل من كونرادين وفريديريك اوف بادن مع عدد من اتباعهما ، وهي المرة الأولى التي رأى فيها أهالي نابولي هذا الصبي الوسيم ذي الستة عشر ربيعا ، والذي كان من الممكن أن يكون ملكا عليهم ويقال أنهم لم يتسموا أبدا ولدة طوبيلة ^(٢) .

ولكن ما هو موقف البابا كليمنت الرابع من هذه المحاكمة ، ومن قتل كونرادين على هذا النحو؟

(1) Malaspina : Op. cit , PP. 848 - 850 .

(2) Hampe : Op. cit , PP. 305 - 306 , P. 314 .

يقول بعض المؤرخين ، ان البابا التزم الصمت ازاء هذه الحوادث ، وان صمته هذا كان اعتراضاً ضمنياً بالموافقة^(١) . غير أن المؤرخ المعاصر جيوفاني فيلانتي حاول جاهداً ان يبعد عن البابا تهمة الاشتراك في قتل كونرادين ، وأوضح ان البابا شعر بالأسى العميق لمقتله^(٢) . لكن يجب أن ندخل في اعتبارنا ان المؤرخ فيلانتي كان ينتمي إلى حزب الجلف الموالي للبابوية ، ومن الطبيعي أن يحاول نفي هذه التهمة البشعة عن البابا ، الأب الروحي للمسيحيين في كل أنحاء العالم المسيحي. على أنه هناك مقوله شهيرة قالها البابا كليمنت ، تنفي رأي فيلانتي وتؤكد أنه كان البابا كليمنت ثور في حث شارل على التخلص من كونرادين بالقتل ، وهذه المقوله هي:

" Vita Conradini , mors Caroli : Vita Caroli , mors Conradini"⁽³⁾ .

أي أن حياة كونرادين تعني موت شارل ، وحياة شارل تعني موت كونرادين .

ولاشك في ان البابا اختار حياة شارل ، التي تعني موت كونرادين ، وكان قتل كونرادين وفريديريك اوف بادن من الأمور التي يحبذها البابا حتى يتخلص وبصفة نهائية من خطر تدخل الهومنستاوفن في ايطاليا وهم الأعداء الالداء للبابوية.

وقد أصيب الرأي العام في اوروبا بالصدمة لقتل كونرادين وفريديريك اوف بادن على هذا النحو ، وتعددت الآراء في ذلك خاصة الاطراف الثلاثة الذين شغلهم هذا الأمر : الايطاليون والفرنسيون والالمان ، اما عن الايطاليين فقد كتب العالم الانساني الكبير المعاصر دانتي اليجيري (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) ان كونرادين يعتبر

(1) Previté - Orton : Italy , P. 189 .

(2) Villani : Op. cit , vol II , PP. 848 - 850 .

(3) Malaspina : Op. cit , PP. 848 - 850 .

ضحية بريئة^(١) ، أما عن المؤرخين الفرنسيين فانهم اعتبروا شارل دانجو مذنباً ، وتمنوا أن يجعلوا عذراً واحداً لبرئته من هذه الجريمة التي تتنافى مع الإنسانية والتقاليد المعروفة آنذاك^(٢) .

أما بالنسبة للمؤرخين الالمان ، فقد اعتبروا قتل كونرادين من أبشع الجرائم التي عرفها التاريخ^(٣) . وكتب الشاعر الالماني هنريخ هين^(٤) Heinrich Heine (١٧٩٧ - ١٨٥٦ م.) عن هذه الحادثة ، واتصفت كتابته عنها بالحزن والمرارة . كذلك فإن الغالبية من المؤرخين المحدثين من الجنسيات المختلفة قد أدانوا شارل دانجو

(1) Dante Alighieri : Opera , Purgatorio III , P. 150 .

(2) Jordan : L'Allemagne et L'Italie , P. 392 .

Leonard : Les Angevins de Naples , P. 380 .

(3) Hampe : Geschichte Konradins Von Hohenstaufen , PP. 312 - 327 , 358 - 365 .

(٤) يعتبر هين من أعظم الكتاب والشعراء الالمان في القرن التاسع عشر ، ولد في ١٣ ديسمبر ١٧٩٧ وتوفي في ١٧ قبرايير ١٨٥٦ وهو يهودي الأصل ، ولما كان والده لم يصادف نجاحاً في أعماله ، لذلك فقد أمده حاله الذي كان يمتلك ثروة ضخمة ويعيش في هامبورج Hamburg . بحاجته من الأموال ، فدرس هين القانون في بون Bonn لكنه لم يمارس المحاماة أو يعمل في أي مجال من مجالات القانون . لأن الشعر والأدب استحوذ على إهتمامه وأخذ ينتقل بين صالوونات الشعر ، وعن طريق حاله تعرف على البارون الشهير روتشيلد Baron Rothschild . وكان هين يعيش الثلالة الفرنسية ، كما كان يؤيد سياسة نابوليون بونابرت حتى انتقل للإقامة في باريس منذ سنة ١٨٣١ . ولهين أعمال عديدة منها ديوان شعر عرف باسم (كتاب الأغاني) Book of Songs الذي ظهر في عام ١٨٢٧ وترجم إلى اللغة الانجليزية عام ١٨٤٦ ، ورحلة هارز Harzreise ، وصدر سنة ١٨٢٦ ، وحمامات لوكا Bader Von Lucca ، الذي ظهر في ثلاثة أجزاء ، عن هين وأعماله راجع :

Vntermeyer L. : Heinrich Heine , Paradox and Poet the life , 1937 .

Rose w. : Heinrich Heine : two Studies of his thought and Feeling , 1956 .

Prawer S. : Heine , The Tragic Stirist , A study of Later Poetry 1827 - 1856 , (1961)

وتعاطفوا بشدة مع كونرادين (١) ووصف المؤرخ روبرت لي وولف Wolff قتل كونرادين بأنه " واحدة من أكثر الأحداث خطورة ومسئوليّة للمرحلة الأخيرة من الصراع على الممتلكات الإيطالية للأمبراطورية الرومانية المقدسة (٢) .

ولاشك في ان قتل شارل دانجو لكونرادين علي هذا النحو ، كان جريمة بشعة بكل المقاييس ، لكن شارل دانجو اعتقد ان الغاية تبرر الوسيلة ، وأنه بموت كونرادين وفرديريك اوف بادن ، يصبح بمقدوره ان يحكم وهو مطمئن تماماً إلى انتهاء سلالة الهونستاوفن إلى الأبد ، اذ لم يبق منهم من ينمازه على عرش الصقليتين ، لكنه كان واهماً إلى أبعد الحدود ، لأن الفسحة القضائية التي أصابته فيقتل ، وقضت علي آماله وطموحاته العريضة في الغزو والفتح وتكون إمبراطورية شاسعة إنما انتهت اليه من أحد فروع الهونستاوفن .

وكان من نتيجة الانتصار الذي احرزه شارل دانجو علي الهونستاوفن ان الثوار الذين رفعوا راية العصيان ضد شارل وتمردوا عليه ووجدوا في كونرادين الأمل والخلاص من الاحتلال الفرنسي قد بدأوا في التراجع " خوفاً على روؤسهم وممتلكاتهم " علي حد تعبير المؤرخ الانجليزي الكبير ادوار جيبون (٣) . فاستسلمت

(١) راجع على سبيل المثال المراجع التالية :

- Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire , Vol III , New York , P. 591 .
- Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 , in C. Med . H. vol VI , ed. Tanner , P. 189 .
- Austine . Lane Poole : The Interregnum in Germany , in C. Med . H. vol VI , ed. Tanner , P. 124 .
- Hoyt and Chodorow : Europe in The Middle Ages , Third Edition , U. S. A. , 1976 , P. 487

(2) Wolff : Op. cit , ch. V , P. 79

(3) Gibbon · Op. cit . vol III , P. 591

مدينتا لوسيرا Lucera في ٢٧ أغسطس ١٢٦٩ م. ، وأجبر بيزا على الاستسلام في سنة ١٢٧٠ م كما اعلنت سينا Siena خضوعها واصبحت من حزب الجلف وطردت الجيلينيين منها ، ومد حدوده في لومبارديا باخضاع تورين Turin والساندرينا Alessandria في ١٢٧٠ ، وانتهت ثورة صقلية بالقبض على كونراد كابيس واعدامه في يوليو ١٢٧٠ م. (١) ورغم ذلك فقد استمرت الثورات ضد حكم شارل علي فترات متقطعة في كل عام ، وان كان يسارع باخمامها الا انها كانت مؤشراً لسوء حكمه للصقليتين بعد ان أغرق البلاد في الدماء وصادر ممتلكات الثوار وخاصة النبلاء ، وأخذ في توزيعها علي نبلائه الفرنسيين ، وتوقف شارل عن الاجتماع مع مجلس النواب Parlement ، ولم يستجب لطلبات انعقاده ، كما أخذ في فرض الضرائب الباهظة علي الامالي حتى فاقت حدود احتمالهم (٢) . فكان لكل ذلك نتائج خطيرة ، إذ عبأ الشعور الوطني لشعب الصقليتين ضد شارل والفرنسيين علي وجه العموم، وتسببت في الانفجار الثوري الرهيب في صقلية في ٢٩ مارس ١٢٨٢ ، الذي اطاح بحكم شارل دانجو فيها ، وقضى علي اعماله وخططه من أجل تكوين امبراطورية تشمل بلاد الغرب والشرق علي حد سواء .

(1) Previté - Oton : Italy , PP. 189 - 190 .

(2) Previté - Oton : Italy , P. 189 .

شارل دانجو والثورة الصقلية

تعرف الثورة الصقلية التي قامت ضد شارل دانجو في يوم الاثنين ٢٩ مارس ١٢٨٢م ، في مدينة بالرمو ، وانتقلت منها إلى باقي أنحاء الجزيرة باسم (صلاة المساء الصقلية)^(١) The Sicilian Vespers وقد اختلفت آراء المؤرخين حول الأسباب التي أدت إلى هذه الثورة ، فالمؤرخ الإيطالي المعاصر جيوفاني فيلاتي أرجع أسباب هذه الثورة إلى الدور الذي قام به حنا بروسيدا^(٢) ، في تحريض شعب صقلية على الثورة ، وقد أضاف على بروسيدا حالة كبيرة جعلته أشبه بالاسطورة^(٣) . والغالب أن العالم الإنساني الكبير فرانسيسكو بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤م.) قد تأثر برأي فيلاتي عن أسباب هذه الثورة ، وأسند إلى بروسيدا الدور الرئيسي والهام فيها واعتبره المحرك الأول لهذه الثورة^(٤) .

وقد أخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين منهم جيبون^(٥) Lum وليروزو Gibbon

(١) يأخذ اسم Vespers من التعبير اللاتيني للساعات الأخيرة من ضوء النهار (evening) وقد بدأ المسيحيون يؤذنون هذه الصلاة منذ القرن الثالث الميلادي ، وكانت عبارة عن صلاة وترتيل لتجيد المسيح وأحياء ذكري العشاء الأخير ، ثم تطورت حتى أخذت شكلها النهائي في القرن السادس الميلادي ، وأصبحت تتضمن : مقدمة موجزة ، خمس ترتيمات ، قراءة قصيرة من الانجيل ، ترتيل ، تمجيد الرب ، صلاة الأغراض المختلفة ، عظة دينية ، وأخيراً آيات خاتمية ، راجع :

The illustrated Encyclopedia of Medieval civilization U. S. A. 1980 , P. 695 .

(٢) يوجد بحث قيم للمؤرخ رانسيمان عن حنا بروسيدا ، نشأته ، دراسته ، ودوره في الحياة

السياسية في عصره ، راجع :

Runciman : John of Procida and the Vespers , in his Book : The Sicilian Vespers , Cambridge , 1988 , PP. 288 - 293 .

(3) Villani : Cronica , vol I , P. 390 .

(4) Petrarca F : Itinerarium Syriacum , in Opera omnia , Basil , 1554 , P. 559 .

(5) Gibbon E. : The Decline and Fall of the Roman Empire , U. S. A. vol I , PP. 236 - 237 .

. (٢) Ostrogorsky (١) ، واستروجورسكي brozo

على ان المؤرخ الايطالي الشهير ميشيل أماري Michel Amari قام بعمل دراسة رائعة لهذه الثورة في كتابه عن (حرب صلاة المساء الصقلية) الذي نشره باللغة الإيطالية عند بداية العقد الخامس من القرن التاسع عشر الميلادي في عام ١٨٤٢ م. ، وظهر في ثلاثة أجزاء ، واعتمد أماري في هذه الدراسة على مجموعة من المصادر التي كانت موجودة في عصره ويصعب الحصول عليها الآن . ثم قام أماري بعمل تغيير وتصويب في الطبعات الأخيرة من هذا الكتاب ، وقد اعتمدنا على الطبعة التاسعة التي نشرت في ميلان في عام ١٨٨٦ م.

وفيما يتعلّق بشورة صقلية هذه ، فقد أوضح أماري ان هناك أسباباً عديدة لهذه الثورة ، وأن دور حنا بروسيدا كان دوراً ثانوياً محدوداً ، وإن الأسباب الحقيقة للثورة تتعلّق بشعب صقلية وما عاناه من ظلم وجبروت المحتلين الفرنسيين (٣) . وأخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين من بينهم فيروزوفسكي (٤) Wieruszowski ، وفازيليف (٥) Vasiliev ، وجياناكوبولوس (٦) Geanakoplos ، وسيستيفن رانسيمان (٧) Runciman في كتابه القيم عن

(1) Lumbrozo G. : Memorie Italiane del byon lempo antico , turin , 1889 .
P. 34.

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State , P. 464 .

(3) Amari : La Guerra del Vespro Siciliano , 9 th ed. Milan , 1886 , vol I , PP. 193 - 301 .

(4) Wieruszowski H. : " Conjuraciones y abanzas Politics del rey pedro de Arag'on
Contra Carlos de Anjou antes de la Lisperas Sicilianas " in Boletin de la A
Cademia de la Historia , 107 , Madrid , 1935 , PP> 560 - 563 .

(5) Vasiliev : Op. cit , vol II , P. 598 .

(6) Geanakoplos : Op. cit , P. 355 .

(7) Runciman : The Sicilian Vespers , Cambridge , 1988 , PP. 210 - 213 .

(صلاة المساء الصقلية) ، The Sicilian Vespers ، الذي نشر في كمبردج لأول مرة في عام ١٩٥٨ ، ثم أعيد نشره في أعوام ١٩٨٢ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ ، وهي الطبعة الأخيرة التي اعتمدنا عليها .

ولا شك في أن رأي أماري هو الأرجح ، لأنه لا يمكن لشخص ما ، مهما كانت قوة تأثيره على الرأي العام ، ان يحرك شعوباً بأكمله للقيام بالثورة ، ما لم يكن لدى هذا الشعب من الأسباب ما يدفعه للثورة . والفالب ان فيلانتي نسب ل هنا بروسيدا هذا الدور الاستوري كمحرك أساسي ورئيسي للثورة نظراً لأن فيلانتي ، كما سبق ان ذكرنا ، كان ينتمي إلى حزب الجلف الموالي للبابوية وشارل ، وليس من المنطق في شيء ان يلقى باللوم علي شارل وسياسته في صقلية ، تلك السياسة التي أثارت شعور الكراهية لدى شعب هذه الجزيرة ضد شارل والمحليين الفرنسيين ، وأشعلت نيران هذه الثورة .

وقد كانت ثورة شعب صقلية ضد شارل أثناء حربه مع كونرادين قد دفعته بعدم الثقة فيهم ، ومن ثم اتخاذ نابولي عاصمة له وعزف عن بالرمو التي اتخذها الهوهنستاوفن ومن قبلهم النورمان عاصمة ، وهكذا فقدت الجزيرة مركزها كمحور اهتمام الحاكم ولم تلق الا الاهمال من جانب شارل ، فلم يبذل جهوداً للنهوض باقتصادها ، بل انه لم يتم بزيارة الجزيرة الا مرة واحدة فقط وهو في طريقه للحاق بشقيقه الملك لويس التاسع في تونس ^(١) ، كما أنه لم يتول الاشراف بنفسه على جهازها الاداري ، وإنما ترك ذلك لنتائجها بها ويدعى هيربرت اوف اورليان Herbert of Orleans الذي اعتمد على مجموعة من الموظفين الفرنسيين عاثوا فيها فساداً وعرف عنهم الجشع والرشوة وابتزاز الاهالي ومعاملتهم بمنتهي القسوة والعجرفة والتعالي ، ولم يحترموا تقاليدهم أو لغتهم ، حتى القضاء كان في يد قضاة

(1) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 211 .

فرنسيين على رأسهم حنا اوف سان ريمي John of Saint - Rémy ، كذلك عانى أهالى الجزيرة من كثرة الضرائب التي فرضها عليهم شارل من أجل تمويل مشروعاته الخاصة بالغزو والفتح ، فادرکوا في النهاية أنهم خضعوا لطاغية أجنبى يبتزهم من أجل تحقيق أهداف لن يستفيدوا هم منها شيئاً ، وأشار إلى ذلك كله المؤرخ الصقلي المعاصر بارثولوميو اوف نيوکاسترو Bartholomew of Neocastro (١) .

بضاف لهذه الأسباب ، تحرىض كل من ميخائيل باليولوجوس وبطرس الثالث لأهالى صقلية . أما عن ميخائيل باليولوجوس فهو امبراطور الامبراطورية البيزنطية (١٢٦١ - ١٢٨٢ م) ، الذي قام شارل دانجو بتجميع قوى الغرب الأوروبي ضده من أجل القضاء عليه واسترداد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، فكان من الطبيعي أن يحاول ميخائيل إثارة المتاعب في وجه شارل حتى لا يحقق أهدافه الخاصة بغزو القسطنطينية لانتزاعها منه . لذلك أخذ في تحرىض شعب صقلية ضد حكم شارل واغدق الأموال على المناهضين له وتم تهريب الأسلحة إليهم . وأما بطرس الثالث ملك أرغونة (١٢٧٦ - ١٢٨٥ م) فهو زوج كونستانتس هوهنتساوفن ابنة مانفريد والوريثة الشرعية للملك والدها في صقلية ، وكانت هي وزوجها يعتبران شارل دانجو مفترضاً لحقها في ملك أبيها . كما فر إلى بلاط بطرس لاجتنون سياسيون من صقلية يدينون بالولاء للهوهنتساوفن لعل

(١) يعرف أيضا باسم بارثولوميو اوف ميسينا Messina ، حيث أنه ولد بها ، أما الكلمة نيوکاسترو فالقصد بها صقلية ، وقد درس القانون وعمل قاضياً في ميسينا ، وفي عام ١٢٨٢ م ، وبعد القضاء على حكم شارل دانجو في صقلية عن طريق الثورة التي قام بها أهالىها ، اختير بواسطة الأهالى حكيمها ، وقد كتب مذكرات تاريخية دون فيها تاريخ صقلية في الماضي وحتى عصره وطلق عليها اسم (التاريخ الصقلي) Historia Sicula ، وقد نشره ميراتوري Muratori في الجزء الثالث عشر من موسوعته ، راجع : Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , ed Muratori in (Rerum Italiacarum Scriptores) , vol XIII , P. 10 .

أشهرهم هنا بروسيدا John of Procida الذي سبقت الاشارة اليه فجاز ثقة بطرس واتخذه مستشارا وسكرتيرا له لذلك أخذ بطرس يقوم باستعدادات عسكرية ويدأ في انشاء اسطول قوي ، ودأب على تغذية المكائد والفتن ضد شارل وهكذا عاد الهوهنستاوفن يطلون من جديد علي صقلية ، وينازعون شارل علي حكمها ويطالبون بحقهم الشرعي في عرশها

وكان أن التقى اعدا ، شارل دانجو . إذ عقد تحالف بين بطرس الثالث وميخائيل باليلوجوس أواخر عام ١٢٨١ م من أجل انتزاع صقلية من شارل وتعهد ميخائيل بدفع مبلغ من المال لبطرس حتى نهاية المغرب ضد شارل^(١)

وأدى ذلك كله إلى غليان الموقف في صقلية وأنذر بانفجار الموقف حتى كان يوم عيد الفصح الموافق الاثنين ٢٩ مارس ١٢٨٢ م. حين حدث الانفجار بالقرب من كنيسة الروح القدس Santo Spirito . التي تبعد حوالي نصف ميل فقط شمال شرق الأسوار القديمة لمدينة بالرمو

وهذه الكنيسة كان قد بناها في عام ١١٧٧ م. والتر او فاميل Walter Ophamil . وهو النجليزي المولد وكان يشغل منصب رئيس اساقفة بالرمو ، وكان من عادة رجال الدين في هذه الكنيسة ان يقيموا مهرجانا في يوم عيد الفصح من كل عام ، ولهذا فقد تدققت جموع المواطنين الصقليين من بالرمو والقرى المجاورة ، إلى هذه الكنيسة وتجمعوا حولها انتظارا لموعد صلاة المساء^(٢) Vespers وبينما الأهالي يغنون ويرقصون احتفالا بهذا العيد ، ظهرت فجأة مجموعة من الموظفين الفرنسيين والفرسان المدججين بالسلاح وكانوا جميعا في حالة سكر بين

(١) Ptolemy of Lucca Historia Ecclesiastica vol XI 1727 Col 1186
1187

Sanudo Historia T 133

(٢) Ruyolman Op. II pp. 11-12

فاستقبلهم الأهالي بعنور ونظارات الاستنكار والكراهية ولكتهم أصروا على المشاركة في الاحتفال ، وكان من بينهم ضابط فرنسي يدعى دروئ دروئ Drouet اعجبته سيدة متزوجة شابة من أهالي صقلية ، أخذ في مضايقتها بتصرفات وكلمات غير لائقة ، بأكثر ما يتحمل زوجها ، فاستل هذا سكينا وطعن به الضابط الفرنسي فأرداه قتيلا ، فاندفع الفرنسيون يهاجمون الأهالي انتقاما لزميلهم ، ولكتهم وجدوا أنفسهم محاصرين تماما بحشد غاضب من الصقليين المسلحين بالخناجر والسيوف الذين ما لبشا أن أجهزوا عليهم ولم يتركوا فرنسيانا واحدا منهم على قيد الحياة ، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها أجراس كنيسة الروح المقدسة، وبباقي الكنائس تدق معلنة حلول وقت صلاة المساء Vespers فأسرع بعض الأهالي بذرعون شوارع بالرمي بعرضون الرجال لقتل الفرنسيين الظالمين ، وانطلقت صيحات الغضب تهز أنحاء المدينة تنادي (الموت للفرنسيين) moranu li Franchiski وأخذوا في مهاجمة بيوت الفرنسيين الموجودة في بالرمي حتى أجهزوا عليهم جميعا سواء كانوا رجالا أم نساء أم أطفالاً وحتى السيدات الصقليات اللاتي تزوجن من فرنسيين قتلن جميعا في هذه الأحداث وانتقلت الثورة إلى أديرة الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان وخرج الجميع يشاركون في هذه الثورة ضد المحتلين الفرنسيين ^(١) .

وفي اليوم التالي لهذه الثورة كان عدد القتلى من الفرنسيين في بالرمي وحدها حوالي الألفين ^(٢) . وأصبح الشوارع يسيطرون تماما على بالرمي ، واجتمع

(١) يوجد وصف تفصيلي لهذه المذبحة في المصادر التالية :

Bartholomew of Neocastro · Historia Sicula , PP. 11 - 12

Villani Cronica vol II PP 242 243

Amari La Guerra , vol I , PP 193 200

(٢) ذكر المؤرخ برفقيته اورتون ان المحصلة النهائية لعدد القتلى لهذه الثورة في انحا الجزيرة =

نخبة من الأهالي وأعلنوا مدينة بالرمو قومونا مستقلا^(١) ، واختاروا قائدا لهم فارسا يدعى روجر ماستراجيلو Roger Mastrangelo ، وعين له ثلاثة من النواب هم هنري بافريو Henry Baverio ، نيكولا اواف اورتوليفا Nicolas of Ortoleva ، كما عين خمسة مستشارين لساعدتهم . وجري تنكيس العلم الانجوي الذي يحمل شارة زهرة السوسن ، واستبدل في كل مكان في المدينة بعلم الهوهنستاوفن الذي يحمل شارة النسر الامبراطوري . وكان فرديك الثاني قد اختاره ليكون شارة مميزة لمدينة بالرمو التي قضي بها طفولته ثم اتخذها عاصمة له ، ثم ارسلوا رسالة إلى البابا مارتن الرابع يسألونه فيها أن يصبح حمايته على هذا القومون الجديد ، ولم يكن البابا مارتن الرابع الخليف الوفي لشارل دانجو ليقبل ذلك فرفض رفضا باتا^(٢) .

وسرعان ما انتشرت أنباء ثورة بالرمو هذه في أنحاء الجزيرة ، وخرجت الرسل

= كانت تتراوح ما بين ٣٠٠ - ٤٠٠ قتيل فرنسي ، راجع :

Previté - Orton : Italy , P. 198 .

(١) القومون هو المدينة التي ارتبطت عناصر سكانها في حلف وحصلوا علي استقلالهم عن طريق ثورة مسلحة ، وقد درج المؤرخون على اطلاق هذا الاصطلاح علي المدن التي تعمت بنفوذ سياسي مستقل ، يعني أن أهلها يختارون حكامهم وموظفيهم بأنفسهم دون ان يفرض عليهم ذلك من قبل سيدا أو حاكماً من خارج المدينة أما التزامات القومون نحو السلطة العليا في الدولة ، كالامبراطور أو الملك أو البابا ، فكانت محددة بمبلغ معين من المال يدفع سنويا وقسط معلوم من الخدمة العسكرية . وللمزيد عن القومون ونشأتها راجع :

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الثاني ، النظم والحضارة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ ، القاهرة ، ص ص ١٠٥ - ١٠٧ .

Petit - Dutailly : Les Communes Françaises au Moyen Ages , Paris , 1948 .

(2) Bartholomew : Op. cit , PP. 12 - 15 .

Villani : Cronica , vol II , PP. 245 - 246 .

Amari : La Guerra , vol I , PP. 228 - 231 .

من بالرمو إلى جميع مدن وقري صقلية لتحرضهم على الثورة وكانت أول مدينة استجابت هي كورليون Corleone ، على بعد عشرين ميلا جنوب بالرمو ، وبعد أن أجهزت على الفرسبيين بها أعلنت نفسها أيضا قومونا مستقلا ، وفي ٣ أبريل ١٢٨٢م. أرسل قائدتها ويدعى بونيفيس Bomiface ثلاثة رسل إلى بالرمو لاتخاذ خطوات مشتركة بين القومين ، فاتفق القومان على أن يرسلا قواتهما في ثلاثة اتجاهات للتعريض على الثورة ، غربا إلى تراباني Trapani وجوبا إلى كالتنيسينا Caltanissetta ، وشرقا نحو مسينا Messina ، وحينما كانت قوات الثوار تقترب كان الفرسبيون يفرون ، ومن لم يستطع الفرار كان نصبه الذبح ، ونجحت قوات الثوار في تطهير المدينتين الأولتين من الفرسبيين ، أما مسينا فقد كان الموقف فيها مختلفا ، حيث كان الأسطول الانجليزي يرابط في مينائها ، كما كان بها أيضا نائب شارل وهو هيربرت أوف أورليان . الذي كانت تحميه حامية فرنسية قوية ، على أن هيربرت ارتكب خطأ كان له أكبر الأثر في انضمام مسينا إلى الثوار وذلك أنه أرسل جيشه من قوات مسينا الصقلية بقيادة فارس صقلية هو وليم شيريلو William Chiriolo جنوبا إلى مدينة تورمينا Tormina لحمايتها من الثوار ، وفي نفس الوقت أرسل جزء من الأسطول ببحارته الصقليين تحت قيادة أحد نبلاء مسينا ويدعى ريتشارد ريزو Richard Riso إلى بالرمو لهاجمتها بحرا ، وكان المتوقع أن يرسل فرسبيين لقمع الثورة وليس الصقليين ولكنه لم يتتبه إلى هذا الخطأ ، فكانت النتيجة المتوقعة هي رفض البحارة أن يهاجموا أخوانهم أهالي بالرمو ، واستقر هذا الأسطول ببحارته وقاده في ميناء بالرمو وانضم للثوار بها . وحينما علم هيربرت بذلك أرسل قوات فرنسية إلى تورمينا لتعل محل معمل قوات مسينا بها ، ولكن وليم شيريلو قبض عليهم جميعا وهكذا أصبحت مسينا بغير قوات كافية ، فانتهزها الأهالي فرصة وأعلنوا الثورة على شارل دالمجو في يوم ٢٨ أبريل ١٢٨٢م وجرت بها مذبحة للفرسبيين عاشرة

لذبحة بالرمو ، كما أشعل الاهالي النار في باقي سفن الاسطول الانجوي المرابط أمامها ، وأعلنت نفسها قومونا كذلك ، واختار قائدا لها هو بارثولوميو مانيسكالكو Bartholomew Maniscalco الذي لعب دورا هاما ورئيسيا لتنظيم الثورة بها ^(١) .

ورغم رفض البابا مارتن الاستجابة لرسل بالرمو والاعتراف بها قومونا وفرض حمايتها عليها ، الا ان الاهالي لم يبأسو خاصية بعد أن انضمت مسيينا إلى بالرمو وبباقي مدن صقلية وارسلوا في أول مايو ١٢٨٢م. ثلاثة رسائل إلى بلاط البابا في اورفييتو Orvieto يسألونه الاعتراف بهم قومونات ، لكن البابا مارتن الرابع رفض ذلك بل أصدر في ٧ مايو ١٢٨٢م. مرسوما بتوقيع قرار الحberman على الثوار في صقلية كلها ، وعلى كل من يقدم لهم العون ، كما أصدر مرسوما ثانيا بتوقيع قرار الحberman على ميخائيل باليلوجوس (الذي يسمى نفسه امبراطور اليونان) . ومرسوما ثالثا بتوقيع قرار الحberman على حزب الجبلين في شمال ايطاليا ^(٢) .

وهكذا أثبت البابا مارتن الرابع مدى اخلاصه ووفائه لشارل دالمجو ، كما أثبت أيضا تأكده التام من الدور الذي لعبه ميخائيل باليلوجوس في العمل على اشعال نيران هذه الثورة للطاحة بحكم شارل دالمجو في صقلية ، والمذير بالذكر ، ان انباء هذه الثورة وصلت إلى ميخائيل باليلوجوس في القسطنطينية عن طريق أحد التجار الجنوبي ويدعى الافرانكو كاسانو Alafranco Cassano ، وسعد الامبراطور ميخائيل بهذه الانباء كثيرا بعد ان نزلت بشارل هذه النكبة ، وأرسل

(1) Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , PP. 12 - 15 .

(2) Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , PP. 15 .

Villani : Cronica , vol II , PP. 245 - 246 .

Amari : La Guerra , vol I , PP. 228 - 231 .

Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 220 - 221 .

للثوار في صقلية مزيداً من الذهب والأموال للاستعانته بها على حرب شارل وأشار ميخائيل باليولوجوس في سيرته الذاتية التي كتبها إلى ابنه وولي عهده اندرونيقوس ، إلى دوره في العمل على تحرير أهالي صقلية من حكم شارل فقال :

" لقد احتقر الصقليون قوات شارل كقوات تستحق الاحتقار وتجرواها واستخدمو الأسلحة واطلقوا أنفسهم من عبوديته فإذا قلت إن الله الذي وهبهم الحرية، قد وهبهم إليها عن طريقنا ، فاني بذلك أقرر الحقيقة " (١) .

لكن ما هو موقف شارل دانجو من كل هذه الحوادث في صقلية ، وأين كان مقره حينما قامت الثورة الصقلية ؟

كان شارل في عاصمته (نابولي) حينذاك ، حين أرسل إليه رئيس أساقفة مونتيال Monreale ، بالقرب من بالرمو ، يخبره بثبيحة بالرمو ، وغضب شارل لسماعه ذلك غير أنه لم يأخذ الأمر على محمل الجد ولم يعطه ما يستحقه من الاهتمام ، معتقداً أن تلك الثورة مجرد تمرد كالذى كان يحدث في كل عام تقريباً وينجح شارل في القضاء عليه ، لذلك أعطى أوامره في ٨ أبريل ١٢٨٢ م. ، لنائب الأدميرال ماثيو اوف سالرنو Matthew of Salerno ليأخذ أربع غاليات محملة بالمقاتلين ويدهب بها لقمع الثورة في بالرمو ، ففشل ماثيو في هذه المهمة بل لجح ثوار مسينا في الاستيلاء على غاليتين من غالياته الأربع عند عودته من بالرمو وعاد بالغاليتين الباقيتين إلى نابولي (٢) .

وحين علم شارل باندلاع الثورة في مسينا أيضاً بدأ يأخذ الأمر بجدية أكثر فجمع اساطيله من الموانئ الإيطالية ، وطلب المساعدة من فيليب الثالث ملك فرنسا

(1) Michael Patacologus De Vita Sua Opusculum , ed. Troitsky , vol II , PP. 537 538

(2) Bartholomew of Neocastro Op cit.P 11 12

(١٢٧ - ١٢٨٥ م.) وابن شقيقه . على أن فيليب كان يرى ان الخطر الأعظم على شارل لا يمكن في صقلية وإنما في أرغونة حيث كان ملكها بطرس الثالث قد اعد اسطولا عظيما أمام ميناء فانجوس Fanggos عند منبع نهر ابرو Ebro فأرسل اليه فيليب رسالة في ٢٠ مايو ١٢٨٢ م. طلب فيها ان يعود بطرس ان هذا الاسطول لن يهاجم عمه شارل دانجو فإذا لم يفعل فليأخذ بعدها بينما وسيضطر فيليب لارسال جيش لمحاربة أرغونة ^(١) .

ولما كان بطرس الثالث لا يرغب في فتح جبهة قتال مع ملك فرنسا قد تعرق عن تنفيذ اهدافه في صقلية ، فقد أكد علي أن هذا الاسطول أعد خصيصا لهاجمة شمال أفريقيا ، في نفس الوقت طلب من البابا مارتن منع بعض الامتيازات الروحية للمشتركون في هذه الحملة واعتبارها حملة صليبية ، ولكن البابا رفض رفضا باتا ^(٢) . فخرج الملك بطرس باسطوله من ميناء فانجوس في ٣ يونيو ١٢٨٢ م. ونزل علي الساحل الجزائري ، وقاتل البربر بعض الوقت ، وكان ذلك كله تمهيحا علي فيليب ملك فرنسا وشارل دانجو ، واستقر بطرس في ميناء كولو Collo ، انتظار لما يسفر عنه الوضع في صقلية ^(٣) .

أخذ الصقليون يعدون أنفسهم للهجوم المنتظر من جانب شارل ، وما لبث أن قام شارل بالهجوم علي مسينا فعلا في ٨ أغسطس ١٢٨٢ م. ، ولكن هجومه فشل ، فعاود هجومه المرة تلو الأخرى ولكن الاهالي قاوموه بشجاعة وتصميم علي

(1) Champollion - Figlac : Letters des Rois , Reines et autres Personnages des cours de France et d'Angleterre . Collection de Documents inedits , Paris , 1884 - 1897 , vol I P. 285 .

(2) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 222 .

(3) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 222

النصر أو الموت في سبيل قضيتهم ^(١).

ومع ترخيص شارل دالجو بأهالي صقلية ومدنها ، ومع رفض البابا مارتن الرابع إعلان حمايته على هذه القومونات الجديدة ، كان لابد للأهلالي أن يبحثوا عن قوة تتولى حمايتهم ومساندتهم ، وقتللت هذه القوة في بطرس الثالث ملك أرغونة الذي كان ينتظر هذه الفرصة ، إذ لم يكن الأهلالي راغبين في أن يتولى حكمهم غريب حتى لا تذكر مأساتهم مع شارل دالجو الفرنسي . وقد كانت زوجة بطرس الثالث هي كونستانس هونستاوفن وهي قبل كل شيء ممثلة لعائلة الهونستاوفن وورثة هذه الأسرة ، لذلك تم الاتفاق فيما بين الأهلالي علي أن تكون هي ملكتهم ، فأرسلوا ثلاثة رسل من بالرمو إلى بطرس الثالث للقائه وكان لا يزال مسكونا في مينا كولو الجزائري فقدموا له فروض الطاعة والولاء وأخبروه بأنهم اختاروا الملكة كونستانس كملكة شرعية لهم ، وأنهم يقدمون لها تاج صقلية ومن بعدها يكون التاج من نصيب أبنائها ، ودعوه للسجن إلى صقلية ، فاستجاب لهم بطرس ، وأعلن أنه ذاهب إلى صقلية بناء على دعوة أهلها ، وأبحر إلى تراباني Trapani ، حيث نزل هناك علي رأس جيشه الذي تكون من ٦ من رجاله المسلمين ، و ٨٠٠ من الالميوجافيري Almugaveri . وهم من المشاة المدربين علي حرب العصابات ويتميزون بالشجاعة وشدة المراس في القتال وقد طبقت شهرتهم الآفاق ^(٢) ، واتخذ طريقه إلى بالرمو ، حيث ترج ملكا علي صقلية في ٤ سبتمبر ١٢٨٢م. ومنع أهلها الحقوق والحرية التي كانت لهم زمن الملك وليم

(١) عن تفاصيل هجوم شارل علي مسينا ومقاومة الأهلالي له راجع

Batholomew of Neocastro Hist Sic PP. 23 - 36 .

Amari La Guerra vol I P 232 ff

Leonardi les Angevins des Naples P 147

(2) Previti - Othon Italy P 194

الثاني النورماني وقد انضم إلى جيشه محاربون من بالرمو وعرب صقلية وانخدعوا طريقهم إلى مسينا حيث كان شارل يرابط باسطوله أمامها . وما أن علم شارل (١) بوصول بطرس الثالث حتى انسحب باسطوله عائدا إلى كالابريا في جنوب إيطاليا . وراح يتبااحث مع ابن شقيقه ملك فرنسا فيليب الثالث للبحث عن مخرج لهذه الأزمة . وسارع البابا مارتن الرابع بالاتضمام إلى شارل في هذا الصراع ، وأصدر قرار الحرمان على بطرس الثالث في نوفمبر ١٢٨٢ م كما أعلن البابا في ١٣ يناير ١٢٨٣ م . ، ان الحرب ضد بطرس الثالث وثوار صقلية وكل من يساعدهم تعتبر حرباً صليبية ، ومنع كل من يحارب ضد هؤلا ، الثوار نفس الامتيازات الروحية التي منحت من قبل لمن يحارب المسلمين في الأرض المقدسة في فلسطين . ويندو أن ذلك لم يكن كافيا في نظر شارل ، إذ قام بزيارة البابا في مقره في فيتريو Vitrbo ليحثه على مضاعفة العقاب لبطرس الثالث وفي ٢١ مارس ١٢٨٣ غادر شارل فيتريو وبعد أيام قليلة ، أصدر البابا مارتن الرابع قراراً بعزل بطرس الثالث عن ملكه في إسبانيا معلناً أن هذا الملك يجب أن ينبع لكاثالوليكي تقي ، ومن ثم جرى منحه لشارل اوف فالوا Charles of Valois وهو الابن الأصغر لليليب الثالث ملك فرنسا (٢)

وقد اشترك البابا مارتن مع شارل دانجو وفيليب الثالث ملك فرنسا في التخطيط لفتح مملكة أرغونة ، وعلم بطرس الثالث باستعداداتهم لنقل الصراع إلى الأرض الإسبانية أي إلى أملاكه هناك . لذلك كان عليه ان يغادر صقلية ليعود

(1) Batholomew Op cit PP 30 32

Runciman Op cit P 227 231

(2) Runciman Op cit P 242 243

Previte Orton Italy P 190

إلي وطنه لحماية ملكه هناك ^(١) . فارسل في ربيع عام ١٢٨٣ م. إلى زوجته الملكة كونستانتس للحضور إلى مسينا ، فوصلت إليها في ١٦ أبريل ١٢٨٣ م. وبصحبتها أبنائها الأطفال جيمس James ، وفرديرك Frederik ، وفيولنت Violante ، ومستشارها الروفي هنا بروسيدا ، وجري عقد البرلان في مسينا في ١٩ أبريل ١٢٨٣ م. حيث أعلن بطرس أنه في حالة وفاته فإن ابنه جيمس سوف يخلفه على عرش صقلية ، وتكون الملكة كونستانتس وصيحة علي ابنها في حكم صقلية مع مجلس وصاية يتكون من القاضي اليمو اوف لينتيني Alaimo of Lentini ، والمستشار هنا بروسيدا ، وال ADMIRAL روجر اوف لوريا Roger of Lauria . وفي اليوم التالي ترك بطرس الثالث زوجته كونستانتس تحكم صقلية ، وغادر مسينا ليقوم بجولة في أنحاء صقلية ثم إلى ميناء تراباني وأخيراً أبحر في ٦ مايو ١٢٨٣ م. إلى فلنسية ^(٢) واضطرب بطرس الثالث لخوض حرب شرسه عنيفة ضد فيليب الثالث ملك فرنسا وشارل دانجو ، اللذان حملاه نتيجة ما قام به في صقلية ضد شارل ^(٣) .

وهكذا عادت كونستانتس هohenstaufen ملكة في إرثها من أجدادها في صقلية ، وأثبتت الحوادث أن قتل شارل دانجو لمانفريد ثم كونرادين ، وحتى فرديرك اوف بادن ، للخلاص من عائلة الهohenstaufen ووضع حد لمزاحمتهم إياه في صقلية، لم يتحقق هدفه ، فما لبث أن بُرِزَ خطأ آخر من إسبانيا ومن نسل الهohenstaufen أيضاً يتطلع لاسترداد ملك آبائه وأجداده .

(1) Runciman : Op. cit , P. 228 - 279 .

(2) Batholomew of Neocastro : Op. cit , PP. 47 - 51 .

(3) عن الصراع الذي قام في إسبانيا بين القوى الثلاثة بطرس الثالث وفيليب الثالث وشارل دانجو راجع :

Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 228 - 293 .

وقد استأنف شارل دالمجو الصراع في صقلية ولكن روجر لوريا قائد الاسطول الصقلي أثبت مقدرة وكفاءة عظيمة في هذه الظروف الصعبة ، إذ استطاع أن يحرز الانتصار في كل معاركه البحرية ضد قوات شارل ونجح في إزالة ضربة رائعة بشارل وحطم الجزء الأكبر من أسطوله عند مالطة في يونيو ١٢٨٣ م. ، بينما استمر البابا مارتن الرابع في مساندته لشارل ، وقدم الأموال والذهب الكثير في يديه من أجل الانفاق على استعدادات الحرب واستخدم الأسلحة الروحية بقسوة في الحرب ضد أهل صقلية ، كما أعلن قرار الحberman على البندقية لرفضها تأجير سفنها لشارل^(١) وشرع شارل في تعريض الخسارة التي لحقت به في السفن والتي أزلتها به لوريا عند مالطة ، فقام باعداد نحو ثلاثين سفينة عند نابولي . وعدد آخرًا عند برندizi ، وتجمعت هذه السفن عند اوستيكا Ustica ، حيث خرج شارل بنفسه على رأس هذا الأسطول ، لكن الحوادث جرت في اتجاه آخر وجاءت علي غير ما يهوي ، ذلك ان شارل كان قد ترك ابنه وولي عهده ويدعى شارل الاعرج (أمير سالرتو) نائبا عنه في نابولي وامرء بالاستعداد لجولة جديدة ، وعلى الرغم من أنه نفذ خطة الاستعداد بهمة ونشاط الا أنه ظلل في مكانه في نابولي انتظاراً لوصول والده على رأس الأسطول ، وفي ٥ يونيو ١٢٨٤ م. ظهر روجر لوريا بالاسطول الصقلي في خليج نابولي واستدرج شارل الاعرج للقتال فتسرع هذا واشتباك معه في قتال ، فانتهت المعركة بانتصار لوريا انتصاراً حاسماً وسقط العديد من نبلاء شارل قتلي وفر كثير منهم من ميدان القتال ، وعندما وصل شارل إلى قرب نابولي أدرك أن أي هجوم مباشر علي لوريا يعتبر أمراً مستحيلاً ، خاصة وقد تفشت الفوضى وانتشر الشغب في نابولي فاشتد حنقه علي ابنه ونعته بالقسيس "الجبان، الغبي" ، الذي يختار دائمًا الخيار الأسوأ . ولكن لم يستطع ان يغير النتيجة خصوصاً بعد ان فر معظم رجاله إلى ابوليأخذ شارل يجمع الرجال من

(1) Previté Orton Italy P 199

هديد وبعد الاسطول ويفير ويبدل في خططه لعله يستطيع أن ينقذ ما يمكن انقاذه ويحتفظ على الأقل بملكه نابولي . ونتيجة لما بذله شارل من جهد ارهق كثيرا واصابته الحمى وظهر واضحـا ان أيامه أصبحت معدودة ، وتوفي في النهاية في فوجيا Foggia في اقلـيم ابوليـا في 7 يناير 1285 مـ ، ونقل جثمانـه إلى نابولي حيث دفن هناك ⁽¹⁾ .

وهكـذا سقط شارـل دـالـجـو ضـحـيـة لـطـمـوحـه المـفـرـطـ وـغـرـورـهـ وـاعـتـزاـزـهـ بـعـنـصـرـهـ الفـرنـسيـ ، وـرـغـمـ أـنـهـ كـانـ فـارـسـاـ جـريـتاـ ، إـلاـ أـنـهـ فـشـلـ فـيـ تـحـقـيقـ أـحـلامـهـ الـعـرـبـيـةـ فـيـ الغـزوـ وـالـفـتـحـ ، وـفـشـلـ فـيـ حـكـمـ وـقـيـادـةـ اـيـطـالـيـاـ كـبـطـلـ مـنـ أـبـطـالـ الـبـابـوـيـةـ ، وـكـانـ فـشـلـهـ الـأـكـبـرـ فـيـ حـكـمـ صـقـلـيـةـ .

وـاـذـاـ كـانـ الـبـابـوـيـةـ قـدـ اـخـتـارـتـهـ لـيـكـونـ بـطـلـهـ وـمـدـافـعـهـ ، إـلاـ أـنـ مـشـارـيعـهـ لـمـ تـتـحـقـقـ وـخـطـطـهـ لـمـ تـنـجـعـ تـامـاـ ، لـاـنـ طـمـوحـ شـارـلـ جـعـلـهـ يـعـملـ لـتـحـقـيقـ مـصـالـحـهـ السـيـاسـيـةـ أـولـاـ ، وـلـمـ تـكـنـ صـفـاتـهـ الشـخـصـيـةـ بـالـتـيـ تـسـعـ باـسـتـغـلـالـهـ كـدـمـيـةـ فـيـ يـدـ الـبـابـوـيـةـ تـحـركـهاـ كـيـفـاـ اـرـادـتـ ، يـلـ اـنـ الـذـيـ حدـثـ هـوـ اـنـ الـبـابـوـيـةـ هـيـ التـيـ أـصـبـحـتـ دـمـيـهـ فـيـ يـدـ يـحـرـكـهاـ كـيـفـ يـشـاءـ وـذـلـكـ عـلـىـ عـهـدـ الـبـابـاـ مـارـتنـ الـرـابـعـ . وهـكـذاـ فـانـ كـانـتـ الـبـابـوـيـةـ قـدـ جـلـاتـ لـشـارـلـ دـالـجـوـ لـكـيـ يـخـلـصـهـ مـنـ خـطـرـ الـهـوـهـنـسـتـاـوـنـ ، فـانـ خـطـرـهـ هـوـ عـلـيـهـ كـانـ لـاـ يـقـلـ بـأـيـ حـالـ عـنـ خـطـرـ الـهـوـهـنـسـتـاـوـنـ .

وـالـوـاقـعـ اـنـ سـيـاسـةـ شـارـلـ دـالـجـوـ فـيـ صـقـلـيـةـ كـانـتـ سـيـاسـةـ فـاشـلـةـ تـامـاـ ، لـاتـهـ لـمـ يـتـجـاـوبـ مـعـ الشـعـبـ الـذـيـ كـانـ عـلـيـهـ أـنـ يـتـعـامـلـ مـعـهـ بـلـ أـنـ اـعـتـدـادـهـ بـأـصـلـهـ الفـرنـسيـ وـمـكـانـةـ فـرـنـسـاـ فـيـ ذـلـكـ الـوقـتـ ، دـفـعـهـ إـلـيـ اـتـخـاذـ سـيـاسـتـيـنـ مـخـلـفـتـيـنـ ، وـاـحـدـةـ تـجـاهـ الـعـنـصـرـ الـفـرنـسيـ ، وـالـآـخـرـيـ تـجـاهـ الـعـنـاصـرـ غـيـرـ الـفـرنـسـيـةـ ، التـيـ نـظـرـيـهـاـ باـحـتـقارـ

(1) Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 254 - 255 .

Previté - Orton : Italy , P. 200 .

وتعالي . وهكذا أساء إلى صقلية وشعبها أبلغ أساء وشهدت الحرير^٤ حكمه من ٦ يناير ١٢٦٦ مـ إلى ٢٩ مارس ١٢٨٢ مـ تدهورا واضمحلالا سياسيا واقتصاديا لم تشهده من قبل ، ولم يكن الصليبيون يقبلون ذلك بعد أن وصلوا إلى قمة الازدهار في عهودهم السابقة خاصة على عهد الملك النورماني روجر الثاني (١١٥٤ مـ) الذي جعل من صقلية مركز ازدهار ورخاء، وتمتعت في ظله بالرخاء الاقتصادي وشهدت عاصيته بالرمي نظرا هائلا في كل الميادين وأصبحت مركزا لصناعة الحرير ، وأطراها المعاصرون كثيرا وتحدثوا عن ثروتها التي بلغت أيراداتها في عام ١١٥٥ مـ أكثر مما بلغته إيرادات جميع مملكة إنجلترا وازدهرت أيضا الناحية الثقافية ، وغدت صقلية ملتقى الشرق والغرب ، حيث تم فيها ترجمة أعمال اليونان والمسلمين إلى اللغة اللاتينية واستحوذت الفنون أيضا على اهتمام روجر الثاني وأصبحت على درجة كبيرة من الرقي والازدهار ، إذ حوي قصره في بالرمي كنيسة صغيرة Chapel كانت آية في الفن والجمال لأنها بنيت بزيع من الفنون المعاصرة البيزنطية والإسلامية ، كما حازت نفس الشهرة الكاتدرائية التي بناها في موئيل Monreale بالقرب من بالرمي ، فضلا عما قام به روجر الثاني من تنظيمات سياسية وإدارية عظيمة في الجزيرة حتى غدت من أقوى الدول في غرب أوروبا ، وبقيت صقلية على نفس المستوى من التمو والازدهار حتى نهاية حكم الإمبراطور فردريك الثاني (١١٩٧ - ١٢٥٠ مـ) ، الذي ولد وتربى في بالرمي ، وكان يعتبر نفسه إيطالياً أكثر منه ألمانياً ، والذي أحب صقلية أكثر من أي مكان آخر ، وكان يردد دائما وحتى آخر أيامه أنها المكان الوحيد الذي يشعر فيه أنه في بيته . وفي عهده شهدت الجزيرة ازدهارا عظيما . حتى عد عهده (العصر الذهبي) لصقلية . وأصبح بلاطه في بالرمي ملتقى العلماء المسلمين والمسيحيين . واليهود . والأكثر شهرة بين مراكز الساسة والثقافة في غرب أوروبا وقد شجع فردريك التجارة والصاعنة وأسس بالحرير مديناً جديدة . كما أقر العدالة

بين رعاياه ، وكفل لهم السلام والرخاء^(١) .

وحيث آل حكم صقلية إلى شارل دالمجو ، اختللت الصورة تماماً أذ لم يتخذ شارل بالرمو أو أية مدينة أخرى من مدن صقلية عاصمة له ، بل اتخذ نابولي عاصمة له ، كما أنه لم يزور صقلية ، باستثناء مرة واحدة حين مر بها وهو في طريقه إلى شقيقه الملك لويس التاسع في تونس ، كما ذكرنا ، وترك حكم صقلية لنائب فرنسي يحكمها باسمه واعتمد على موظفين فرنسيين اتصفوا بالفساد فتعسفوا مع الأهلالي وأساعوا معاملتهم وتعالوا عليهم وأظهروا كثيراً من الغطرسة ، هذا بالإضافة للضرائب الباهظة التي فرضها عليهم من أجل تمويل خططه ومشاريعه الرامية إلى الفتح والغزو ، وهكذا تعددت أخطاء شارل التي لم يفطن إليها وسط مشاريعه الكثيرة وانشغاله بالغزو وثقته الزائدة في نفسه وأصله وقدراته ، ولكن فقط إليها أعداؤه واستغلوها أحسن استغلال ، وأخذوا في تحريض الشعب الصقلي للتخلص من هذا الحكم الجائر ، وأمدوه بالسلاح والأموال ، وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا هو الانفجار الثوري الهائل الذي أطاح بشارل دالمجو وقضى على حكمه في صقلية إلى الأبد . كما كان لهذه الثورة الصقلية تأثير على البابوية ، فيالرغم من احتياز روما لصف شارل في حكمه لصقلية وتأييده وخاصة من قبل البابا مارتن الرابع تأييدها تماماً ويختلف الوسائل ، إلا أن الصقليين ضربوا بهذا التأييد عرض الحانط ، وسمت همتهم للخلاص من هذا الحكم ونصبوا ملكاً اختاروه بأنفسهم لا ملكاً فرضته عليهم البابوية .

(١) عن صقلية ومكانتها أثناء حكم النورمان والهرهونستاوفن راجع :

Norwich J : The Normans in the South , 1967 .

Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 1 - 15 .

The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , U. S. A. , 1980 , PP. 646 - 647 .

وربما لم يكن فشل شارل في سياساته تجاه صقلية خطأً وحده ، لأنَّه لم يكن يقدِّر حاكم باستثناء فردريك الثاني ، ان يوحِّد صقلية وإيطاليا خاصة في القرن الثالث عشر ، لأنَّ الشعور القومي الوطني كان قد نَمَّي وأخذ يُسْبِر في اتجاه آخر غير الذي أراده شارل دالجو ، ولم يكن الشعب الصقلبي ليتقبَّل أن يكون تحت حكم رجل غريب . في الوقت الذي لم يدرك شارل ذلك ، بل لم يبذل أي جهد في سبيل محاولة فهم شعب صقلية لتحقيق مطالبه وأحْتِياجاته .

لقد افتتح شارل دالجو عصر الغزوات الفرنسية في إيطاليا ، وبدلًا من أن يوجه اهتمامه بـ«فرنسا القريبة» منها ، ذهب ليغزو إيطاليا ويفرق في مشاكلها . وعندما توفي شارل في ١٢٨٥ م. لم يترك وراءه في صقلية وإيطاليا إلا الدمار ، وأسرة جديدة سينتهي ، وحكومة أسوأ في نابولي ، وبابوية ضعيفة .

هذا ما خلفه نابليون القرن الثالث عشر شارل دالجو .

المصادر والمراجع

-
- 1 Austine Lane Poole The interregnum in Germany , in c
Med. H. vol VI , ed. Tanner , Cambridge , 1968
 - 2 - Bartholomew of Neocastro · Historia Sicula , ed. Paladino , in
Muratori , R I S S , vol XIII , Part 3 , 1921
 - 3 - Barrachough G. The Origines of Modern Germany , 1951 .
The Medieval Papacy , London , 1975
 - 4 - Berger E. Histoire de Blanche de Castile régne de France ,
Paris, 1895
 - 5 - Böhmer J. · Regesta Imperii , ed. , Ficker and wink elmann ,
innsbiruck , 1881 - 1901 .
 - 6 - Buchon (y.) : Recherches historiques sur la principauté française
de Morée , et ces hautes baronnies , I , Paris , 1845 .
 - 7 - Carabellese · Carlo D'Angio nei rapporti Politici e commerciali
Venezia e l'oriente , Bari , 1911
 - 8 - Dante Alighieri Opera , III Purgatorio , ed. E. Moore and P.
Toynbee , fourth Edition , Oxford , 1924
 - 9 - Del Guidice : La Famiglia del Re Manfredi , Naples , 1863 .
 - 10 - Du Cange · Histoire de l'empire de Constantinople sous les
empereurs français , ed. Buchon Paris , 1826 .
 - 11 Fliche and Martin Histoire de leglise . vol X . Paris , 1950
 - 12 Gibbon E The Decline and Fall of the Roman Empire . 6 vols,
-

New York , 1976 .

- 13 . Hampe K. : Geschichte Konradins Von Hohenstaufen ,
innsbruck , 1894 .
- 14 - Harvey J. : The Plantagenets , Six teenth impression , 1979 .
- 15 - Hefelé - Leclercq : Histoire des Conciles , Paris , 1914 .
- 16 - Hoyt and Chodorow : Europe in The Middele Ages , Third
Edition , U. S. A. , 1976 .
- 17 - The illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , U. S. A.
1980 .
- 18 - Jordan E. : Les registres de Clement IV , Paris , 1893 .
- 19 - " : L'Allemagne et l'Italie aux XII ^e Siècles , dans Glotz :
Histoire Générale , Histoire du Moyen Ages , vol IV
, Paris , 1909 .
- 20 - " : Les Origines de la Domination Angevine en Italy ,
Paris , 1909 .
- 21 - Kern F. : Acta Imperii et Franciae 1267 - 1313 , Tubinger ,
1911 .
- 22 - Labis : Histoire de France , Paris , 1976 .
- 23 - Leonard E. : Les Angevins de Naples , Paris , 1954 .
- 24 . Lexicon universal Encyclopedia , Lexicon Publication , New
York , 1983

-
- 25 Longnon J Le rattachement de la principauté de Moreé au royaume de Sicile en 1267 , Paris , 1942 .
- 26 - Malaspina , Saba : Historia Sicula , in Muratori , RISS , vol VIII
- 27 - Martène and Durand : Thesaurus novus Anedotorum , vol II , Paris , 1717 .
- 28 - Miller (w.) : The Latins in The Levant , A History of Frankish Greece (1204 - 1566) , London , 1908
- 29 - Oliver - Martin : les registres de Martin IV , Paris , 1901
- 30 - Oman : A History of the Art of war in the Middle Ages , 2 vols, London , 1924 .
- 31 - Ostrogosky (G.) : A History of the Byzantine State , English trans. by Hussey , Oxford , 1969
- 32 - Painter (S.) : A History of the Middle Ages , New York , 1954
- 33 - Powicke (F.) King Henry III and Lord Edward , Oxford , 1957
- 34 Prawer (S.) Heine , The Tragic Stirist , A Study of later Poetry (1827 - 1856) , 1961
- 35 · Previté - Orton · Italy 1250 · 1290 in C. Med H. vol IV , ed Hssey , Cambridge , 1975

-
- 36 - Rose (w.) Heinrich Heine , two studies of thought and
Feeling, 1956
- Runciman (S.) : The Byzantine Civilization , Cambridge , 1975 .
- " : the Sicilian Vespers , cambridge , 1988 .
- 38 - Sanudo (m.) Istoria del Regno di Romani , in Hapf .
Chroniques Greco - Romanes , Berlin , 1873 .
- 39 - Setton K. : The Latins in Greece and The Aegean From The
Fourth Crusade to the End of the Middle Ages , in C.
Med. H. voi IV , ed Hussey , Cambridge , 1975 .
- 40 - Strenfeeld : Karl V on Anjou als craf der Provence . Berlin ,
1888 .
- 41 - Tafel and Thomas : Vrk under Zuralteren Handels Und staats
geschichte der Republik Venedig , Vienna , 1857 .
- 42 - Trifone (R.) La Legislazione Angioina , Naples , 1921 .
- 43 - Ullmann (W.) : A History of the papacy in the Middle Ages ,
1972 .
- 44 - Vasiliev : The History of the Byzantine Empire (1324 - 1453) ,
2 vols , U. S. A. , 1971 .
- 45 - Villani (G.) : Cronica , 8 vols , Florence , 1823 .
- 46 · Vntermeyer L · Heinrich Heine , Paradox and Poet the life ,
1937
- 47 Zukythinos (P) Le Despotat Grec de Morée , Paris .
-

